S U M A Y A M U H A M M A D

مؤسس المشروع: د.طلال المكي
رئيسة المشروع: سهام الشريف
نائبة رئيسة المشروع: دعاء بامردوف
نائبة رئيسة المشروع: شهد ياسين

ألواحٌ ودُسُر

د.أحمد خيري العمري

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

كتاب ألواح ودسر

د. أحمد خيري العمري

رئيس لجنة الدراسات : ابراهيم عبدالعزيز المعثم

نائبة رئيس لجنة الدراسات : ملاك ابراهيم العنزي

مشرفة لجنة التلخيص الشهري : صباح فهد عجيمي

رئيسة لجنة الكتابة :وديان سعد اللقماني

رئيسة لجنة تقنية المعلومات: امواج محمد نوح

رئيسة لجنة التصميم والتنسيق : مروج القرماني

رئيسة لجنة التدقيق ومراجعة الروايات: أثير العمري

S U M A Y A M U H A M M A D

الملخصة:

إسراء المولد

تدقيق إملائي ونحوي:

أثير العمري

تنسيق الكتاب وإخراجه:

خديجه الصلبوخ

الفهرس

المقدمة	٥
الفصل الأول	٦
الفصل الثاني	١٧
الفصل الثالث	٢٣
الفصل الرابع	٢٧
الفصل الخامس	٣٤
الفصل السادس	٤٢
الفصل السابع	٥١
الفصل الثامن	٥٥
الفصل التاسع	٦٢
الفصل العاشر	٦٧
الفصل الحادي عشر	٧٥
الخاتمة	٨٢

المقدمة

بعض الحكايات ، لا تنتهي أبداً ، بل تظل تحدث وتحدث مرة تلو أخرى ، لا تكاد تنتهي إلا لتبدأ من جديد.. ربما تختلف التفاصيل ، تختلف أماكن الأحداث ، تختلف أسماء الشخصيات.. ولكن جوهر الحكاية يبقى مستمراً.. كما لو كان صدى لا يتبدد لصوت قديم..

بعض الحكايات يكون لها ألف وجه.. وجهها الأول هومجرد بداية.. بعدها تبدأ الوجوه الأخرى بالظهور.. لا تلغي الوجه الأول بالضبط.. ولكن تجاوره وتسكنه..

مثل حلم داخل حلم هي بعض الحكايات ، لا تدري حقاً متى بدأ الحلم الثاني ، أو الأول ، ومتى بدأ هذا الحلم أصلاً..

بعض الحكايات تشبه دوماً حكاية شاهدتها من قبل ، أو سمعتها ، فتشهق ، لأنك ستجد فيها حكايتك.. وربما تدخل في أحلامك ، وربما تأخذ جزءاً من أحداث حياتك..

هل سيلومك أحد على أنك صرت جزءاً من تلك الحكاية ؟

ربما.. عذرك الوحيد سيكون أن ليس على النائم حرج..

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

الفصل الأول

لن أستطيع أن أنسى تلك النظرة على وجوههم .

كانت المياه تغمر كل شيء ، وتضرب كل شيء ، كنت قد ركبت السفينة في اللحظة الأخيرة قبل أن تغمر المياه رأسي وأغرق . لهثت فور صعودي السفينة وتنفست بعمق . ثم التفت لأرى طوفان المياه يغمر كل شيء . كانت هناك بعض الرؤوس الطافية تصارع مد المياه.. مددت يدي لأساعدهم على الركوب ، لكنهم رفضوا . فرمى أحدهم بطوق نجاة مربوط بحبل من حبال السفينة ، لكنهم رفضوا أيضاً..

بين مد المياه المتلاطم ، استطعت أن أرى تلك النظرة على وجوههم ، كانت نظرة عدم تصديق ، نظرة فيها تفضيل للموت غرقاً على الاعتراف أنهم كانوا مخطئين.. لحظات وغابت تلك النظرة ، غمرتها المياه .

ذكرتني تلك النظرة ، بنظرة أخرى ، رأيتها على الوجوه نفسها ، نظرة استهزاء واحتقار وسخرية ، ملأت وجوههم ذات يوم وهم يمرون بنا حين كنا نشارك في بناء السفينة . صرخاتهم وهم يغرقون ذكرتني بصرخات الاستهزاء والضحك التي كانوا يطلقونها عندما نمر بهم ونحن نحمل الألواح الخشبية .

بين النظرتين ، والصرختين ، تقع القصة التي أريد أن أحكيها لكم.. وإن كنا قد بدأنا من النهاية ، فإن علينا أن نعود بداية القصة.. قبل أن يأتي الطوفان..

أتذكر منذ أن ولدت ، كانوا يتحدثون في البيت عن نوح ، وعما يقوله ويفعله إضافةً إلى أنهم عندما كانوا يشيرون إلى شيء قديم جداً كانوا يقولون : " بعمر السيد نوح " .

لم أكن قد رأيت نوحاً وقتها .

ظل في مخيلتي شخصاً كبيراً جداً أسمع به ولا أراه ، أسمع الناس يتحدثون عنه ، ويختلفون عليه ، لكني أذكر أني سألت أمي مرة عما يريده السيد نوح.. فقالت : " إنه يريد عالماً أفضل من هذا.." يومها استغربت ، لِمَ يكره البعض ما يقوله ويفعله نوح ما دام يريد عالماً أفضل !؟

تخيلت أنه ربما كان يريد العالم الأفضل لي وحدي ، فصرت أعده صديقي ، أقضي الوقت وأنا ألعب معه ، أتخيل أني صرت مساعداً له في عمله ، ولم أكن أعرف ما هو عمله ، لكني تخيلته معماراً ، بناءً..

كنت أقضي الوقت – في يقظتي – وأنا أحلم بذلك العالم الأفضل الذي أساهم في بنائه مع نوح .. كنت أحياناً أصعد إلى سطح المنزل لألعب لعبة الخيال تلك ، وكنت كثيراً ما أرفع صوتي وأنا أتحدث معه ،أقول له : تفضل الفأس ، تفضل الأصباغ ..

سمعني أخي الصغير ذات يوم وأنا أتحدث معه ، فهبط مسرعاً وأخبر أمي أني أتحدث مع نفسي ، سألتني أمي عن الشخص الذي كنت ألعب معه ، فقلت لها : إنه السيد نوح ، فضحكوا جميعاً من الأمر..

ثم حدث ما غيَّر حياتي ..

أو بالأحرى حدث ما لم يغيرها ، ما جعل حياتي تجمد على وضع معين .

انتبهت إلى ذلك للمرة الأولى ، في جلسة أمي الأسبوعية ، عندما قالت السيدة غلاظة لوالدتي إنها تود أن تراني لأنها مشتاقة إلي كثيراً حيث إنها لم ترني منذ مدة . كان ذلك اللطف غريباً على السيدة غلاظة ، لذا فقد نادتني والدتي بسرور ، وعندما دخلت إلى المجلس ، احتضنتني السيدة غلاظة بشدة وقبلتني وهي تتمتم بأسماء الآلهة التي يفترض أن تحميني .

كانت تقول ذلك وهي تتأملني ، قبل أن أنصرف ، وما إن ابتعدت خطوتين ، حتى سمعت السيدة غلاظة تقول لوالدتي بصوت مختلف " لا أيد أن أزعجك يا أم نور ، وأنت تعلمين مقدار حبي لك ، ولكن.." ، ثم سكتت.. كما لو أنها تريد لفت انتباه السيدات جميعاً إلى أهمية ما ستقوله..- وقد تمكنت بالفعل من ذلك – " ولكن.. ألا تلاحظين أن ابنك نوراً لا ينمو كبقية الصغار ؟.. إنه يبدو أصغر من أصغر أولادي الذي ولدته بعده بأربع سنوات.." .

لا حظت أن عيون السيدات جميعاً صوبت نحوي ، ورأيت عيني السيدة نميمة الضيقتين أصلاً تضيقان أكثر وهي تحدق بي النظر ، وتسأل أمي : " ماذا قلت؟ كم يبلغ نور الآن ؟"..

حاولت أمي التملص وتغيير الموضوع بسرعة ، فقالت : " إنه صغير فعلاً.. عمره لم يتجاوز السادسة بعد.. وطوله ووزنه مناسبان لعمره.. ما الذي دهاكن يا سيدات ؟ تفضلن كُلْنَ من الحلوى ، لقد عملتها بيدي من السكر المستورد "..

كنت أعرف تماماً أني لست في السادسة ، وأني في موسم الحصاد القادم سأكون قد بلغت التاسعة.. وكان كذب أمي يعني أنها تخفي شيئاً ما بخصوصي..

قالت السيدة غلاظة بحدة : " لا أعتقد هذا ، فأنا أذكر تماماً أنني ولدت ابني سليطاً في الأسبوع نفسه الذي ولدت ابنك فيه ، وابني عمره الآن تسع سنوات.." .

فقالت لي أمي بحسم أن أذهب.. ثم التفتت إلى السيدات وقالت بحسم أيضاً : " الحلوى يا نساء " .

يومها أخذتني أمي وأوقفتني على الحائط ، ثم جاءت بقلم مداد في طرفه لون أحمر ووضعته عند قمة رأسي ، وأبعدتني عن الحائط لأجد خطاً أحمرَ يماثلني في الطول قد ركز على الحائط . نادت إخوتي الصغار وفعلت معهم شيئاً مماثلاً لكن بلون مختلف لكل واحد منهم ، بعد أسابيع كررت الشيء ذاته ، باللون ذاته لكل منا ، كل إخوتي ازداد طولهم ، أما اللون الأحمر فقد بقي ثابتاً ، لم يتحرك ولو قليلاً..

كان واضحاً للجميع أني لا أكبر.. وصرت أرتدي ثياب إخوتي التي تصغر عليهما . وكان زملائي في الصف قد انتبهوا إلى ذلك ، كما انتبه الجميع في الحي..

وحدها أمي كانت ترفض أن تصدق أن ثمة مكروهاً في ، واحتاجت إلى ذلك الحائط ، لتقتنع أن ثمة مشكلة ما في نموي..

شاهدتها ذات ليلة واقفة أما الحائط تنظر إليه ودموعها تنساب من عينيها.. احتضنتها بشدة ، وهمست في أذنيها ، " لست مريضاً يا أمي ، لست مريضاً ، أنا بخير.." .

في الأشهر التالية ، لم يبقى دجال ، ولا دجالة ، في المدينة إلا وذهبت إليه بصحبة أبي وأمي.. ثم تمضي الأسابيع ، ويستنزف هذا الكاهن أو تلك الكاهنة أموال أبي ومدخرات أمي ، والنقطة الحمراء لا تتزحزح من مكانها ، ويعود أمي وأبي يبحثان عن شخص آخر " غير هذا الدجال .."

ومع ذلك كله ، بقيت كما أنا بقيت النقطة الحمراء في مكانها، وبقيت دمعة أمي حزينة وصامتة.. لا تهبط إلا عندما أنام.. فهذه الدمعة تخبرني بدلاً من آلاف الكلمات كم تحبني..

قال النورس للأفق : ما الذي تفعله هنا بالضبط ؟ لقد قالوا لنا إنها قصة نوح.. لكني أشعر أن البداية مختلفة قليلاً..

قال الأفق : أو كثيراً ربما..

قال النورس : نعم.. كثيراً.. ربما هناك خطأ ما.. هل نكون قد دخلنا في القصة الخطأ ؟

قال الأفق : ربما لا..

قال النورس : ما الذي تقصده ؟

قال الأفق : ربما هي قصة نوح ، ولكن كما شاهدها طفل صغير كان موجوداً في وقته.. ما المشكلة في هذا ؟

قال النورس : هل سننتظر حتى يكبر؟ لاحظ أنه ليس صغيراً فقط ، ولكنه صغير ولا يكبر أيضاً !.. هل سمعت بشيء كهذا من قبل ؟

قال الأفق : ربما لهذا معنى.. لا تقل لي إنك مستعجل هكذا من البداية ، لقد وصلنا للتو !

ذات يوم كانت أمي غارقة في حزنها وقد يئست من كل الدجّالين والدجّالات ، جاءت (أم صابر) الخبازة التي تأتي عندنا كل صباح ، وجلست بالقرب منها... وقالت لها : " سيدتي ، لِمَ لا تأخذين المحروس إلى السيد نوح ؟ " ، رفعت أمي حاجبها مندهشة : " السيد نوح ؟ لم أكن أعلم أنه أصبح يعالج الأمراض ، هل صار الطب من هواياته الآن ؟ " .

أجابت أم صابر : " لا ، ليس الطب ، لكنه رجل مبروك ، يده كلها خير وبركة ، لن تخسري شيئاً يا سيدتي.. إنه لا يأخذ مالاً من أحد.. إنه رجل صالح يساعد الناس.. " ، أستطيع أن آخذك إليه .. سكتت أمي قليلاً ، وأطرقت برأسها مفكرة . ثم قالت : " نعم ، غداً.. وإياك أن تخبري أحداً.. " .

قررت أمي ألا تخبر أحداً بقرارها الذهاب إلى السيد نوح : أشارت إلى أم صابر أن تخرج من الدار قبلها ، ثم نلحق بها نحن كأننا لم نخرج معاً . لحقنا بأم صابر التي انتظرتنا عند الزاوية.. ثم أشارت أمي إلى واحدة من العربات التي تجوب المدينة لتوصيل الناس .. صعدنا العربة ، وقالت أمي للسائق : " الأراذل ، لو سمحت ".. وانطلقت العربة..

كان الطريق طويلاً ، وعندما وصلنا ، كانت البيوت تشبه الأكواخ ، وكان الناس مكدسين فيها ، باختلاف الحي الذي نسكن فيه . تمتمت أمي : " .... ما الذي يفعله نوح هنا ؟ " .

لم تكد تنهي جملتها ، إذ رأينا بيتاً أوسع قليلاً ، وبناؤه أفضل قليلاً ، ومنه انطلقت أصوات الأطفال.. اقتربنا أكثر ، ومن النافذة رأيته ، للمرة الأولى ، رأيت ذلك الصديق الذي طالما لعبت معه في خيالي.. لم يكن معماراً يبني البيوت كما تخيلته ، لكنه كان يعلّم الأطفال ، كان يعلّمهم الأبجدية ، وكان وجهه مشعاً..

كان الدرس على وشك الانتهاء.. سمعنا صوت نوح يقول للأولاد : تذكروا دوماً أننا نتعلم الأبجدية من أجل أن نقول شيئاً مختلفاً عما يقوله الآخرون.. من أجل أن نقول جملة أجمل ، كلمة أفضل ، من أجل أن نصل لمعنى أكمل.. إننا نتعلم الأبجدية لا لنردد ما قاله الآخرون . ولكن كي نقول الصواب.. الصواب فقط .

شعرت بأن كلماته بإمكانها أن تجعلني عملاقاً.. حتى لو بقيت النقطة الحمراء في مكانها..

دخلت أم صابر أمامنا ، دخلت أمي بتردد وهي تسحبني.. كل خطوة كانت تزيد من الشعور بالراحة ، كما لو أننا نعرفه طوال حياتنا..

سلمت أمي عليه فرد التحية مع ابتسامة ، زاد ذلك من الطمأنينة عند أمي ، وقالت له : " إن الناس كلها تدلني عليك يا سيد نوح ، وأم صابر هنا قالت لنا إنك رجل مبروك ، وقالت إن أحداً لن يتمكن من مساعدتنا كما تستطيع أنت " .

رد نوح بهدوء : " تفضلي سيدتي ، إن الله هو الذي يساعدنا حين نساعد أنفسنا ".. بدت لي الكلمة غريبة ، من هو الله؟ كيف يساعدنا حين نساعد أنفسنا ؟.. هل هو كاهن أو عرّاف أو صديق من أصدقاء السيد نوح ؟..

قالت أمي بسرعة : " هذا ابني يا سيد نوح ، يبلغ من العمر الآن العاشرة تقريباً ، لكن طوله كما تلاحظ ، لا يناسب عمره ، لم يزدد طوله منذ أن كان في السادسة تقريباً.. وأخذناه يا سيدي إلى كل الكهنة والحكماء في المدينة ، لم تبق تميمة أو تعويذة إلا حاولنا استخدامها ، دون طائل .. وقالت أم صابر أن بإمكانك مساعدتنا في ذلك " .

رد السيد نوح : " سيدتي أنا معلم أطفال كما ترين ، ولست طبيباً ، ربما أم صابر أخطأت العنوان " .. قالت أمي بتوسل : " إنك رجل صالح يا سيدي " .

قال نوح : " لكن الرجل الصالح ليست وظيفته أن يشفي أمراض الناس ، أو أن يزيد من أطوالهم ، الرجل الصالح عليه أن يصلحهم ، أن يساعدهم في إصلاح أنفسهم وما حولهم بأنفسهم " .

قالت أم صابر : " إنك رجل مبارك يا سيدي ، ربما أنت متواضع ولا تريد أن تعترف بذلك فقط لو مددت يدك على رأسه وقلت له بعضاً من كلماتك.. ربما سيشفى.." .

رد نوح : " ليس هكذا يا أم صابر ، أمد يدي ليس لأضعها على رأسه ، ولكن لآخذ بيده ، لكي أسحبه كما أسحب بقية الأطفال.. كلماتي لا أقرؤها على رأسه مثل تعويذة غير مفهومة ، بل أقولها أمامه كي تدخل رأسه ، كي تغيره ، كما أفعل مع الجميع " .

قالت أمي : " ليس ثمة ما ينقصه إلا أن يزداد طوله.. " .

فقال نوح : " إن شئت يا سيدتي أن يلتحق بالأطفال عندي في المدرسة فأنا أرحب به.. " .

ردت أمي بنبرة فيها استنكار " هنا ؟! " ، ثم قالت : لا يا سيد نوح ، ابني يدرس في أرقى مدرسة ، مدرسة الأستاذ فهيم ، وهي مدرسة ليست بالمجان مثل هذه .

رد السيد نوح : كما تشائين يا سيدتي ، لكني لا أعلم الأحرف والحساب فقط كما تفعل تلك المدارس ".. قلت بفضول أنا : " ماذا تعلم إذن ؟ "

قال نوح : " اعلم الحقيقة " . ازداد وجهه إشراقاً و ضوءً عندما قالها وهو ينظر إلي.. " الحقيقة في هذا العالم الذي يحاولون أن يزيفوه.. وحقيقة أنه لله كله ، وأن كل هذه التماثيل التي.. "..

لم تدعه أمي يكمل.. " يا سيد نوح ، كل ما أريده هو أن يزداد طوله شبراً أو شبرين " .

قال نوح : " بعض الأشياء يا سيدتي لا تقاس هكذا.. الإنسان لديه روح لا تملكها الأشياء.. وشبر أقل أو شبر أكثر لن يعني أن هذا الإنسان أسوأ أو أفضل.. " .

تنهدت أمي وقالت : " إذن لا فائدة.. شكراً لك على أي حال سيدي " ..

انسحبت أمي وأم صابر بينما هما يشكرانه وخيبة الأمل واضحة عليهما .

فقال لها السيد نوح : تذكري يا سيدتي ، الإنسان لا يقاس بطوله ، بل بروحه وأعماله ، وربما يأتي يوم تعرفين أنه من الأفضل له أنه بقي طفلاً ".. فقالت أمي : " شكراً لك.. "

ظلت أمي صامتة تفكر بعمق ، أما أنا فقد غرقت في كلمات نوح..

تسللت إلى أبي بينما هو جالس على سطح المنزل ، وقلت له : " أبتِ ، لماذا يعيش بعض الناس في تلك البيوت الصغيرة المهدمة ، كالتي رأيتها اليوم عندما أوصلنا أم صابر إلى بيتها؟ "

ابتسم أبي وقال : " وأين تريدهم أن يعيشوا إذن ؟ " .

قلت : " في بيوت مثل بيتنا.. أو بيت خالتي.. أو بيت عمتي.. " .

قال : " لا يمكن لهم ذلك يا عزيزي.. لأنهم فقراء ".. واستمريت في الأسئلة..

وبعد أن انتهيت من الأسئلة ، وانتهى أبي من كلامه ، تذكرت كلام نوح عن الأبجدية التي لا نستعملها.. لقد كان في كلام نوح ما لم أفهمه ، لكني صرت أفهم ما الذي يقصده بالعالم الأفضل..

لكن من هذا الله الذي تحدث عنه وقال إن علينا أن نساعد أنفسنا كي يساعدنا ، لم أسمع به أبداً ، هل هو صديق له ؟.. هل هو من مدينتنا ؟.. وإذا كان مهماً جداً هكذا فلم لم أسمع به من قبل ، لا من أبي ولا من أمي ، وما معنى أن يساعدنا عندما نساعد أنفسنا ؟.. وكيف يمكن لأحد أن يساعد نفسه ؟.. كنت أريد ان أسأل أمي لكني رأيت مزاجها معكر ، ففضلت أن أسألها في الصباح..

في الصباح لاحظت أنها تأخرت في الاستيقاظ ، ولم تنهض مبكراً قبل الجميع كعادتها.. انتظرت قليلاً ، ثم دخلت غرفتها ، وأيقظتها وقلت لها : " أمي لم لا نجرب الذهاب إلى صديق السيد نوح الذي قال عنه ؟ "..

بدت عليها الدهشة " أي صديق هذا ؟ " .

قلت : " صديقه الذي تحدث عنه.. "

" لم يتحدث عن صديق إطلاقاً.. عم تتحدث أنت ؟ "..

" بلى ، لقد قال شيئاً عن أحدهم ، لم يقل إنه صديقه لكن بدا كما لو أنه يشير إليه ، ربما كان كاهناً أو عرّافاً أو مجرد صديق "..

" ما أزال لا أفهم.. نوح لم يذكر أي اسم ، أضف إلى ذلك ، أنه لم يذكر اسم أي كاهن ولا عرّاف لأنه لا أصدقاء له بينهم تحديداً "..

" أظن أنه ذكر اسمه تحديداً يا أمي "..

" وماذا كان اسمه ؟ " ..

" الله.. "..

فجأة شعرت كأن أمي قد تقلصت وجمدت.. نهضت من سريرها والتوتر بادٍ عليها.. قالت كأنها تحدث نفسها " كله بسببك يا أم صابر ، كنت أعرف أن شيئاً كهذا سيحدث "..

فقلت : يا أمي ، ألا تريديني أن أزداد طولاً ؟..لم لا نذهب إلى هذا الذي قال عنه السيد نوح الله ؟ "..

التفتت أمي بحدة وقالت : " اسمع يا نور.. لا أريد أن اسمع منك هذه الكلمة.. ولا حتى مرة واحدة.. انسَ الأمر.. انسَ الأمر كله ، نحن لم نذهب إلى نوح.. هل فهمت ؟ "..

هبطت إلى الحديقة الخلفية للمنزل . كانت أم صابر تعد الخبز كعادتها.. اقتربت منها وقد قررت أن أسألها عن صديق السيد نوح.. فقلت لها : " هل تعرفين صديق السيد نوح ؟ "..

سألت أم صابر باستغراب : " أي صديق ؟ "..

" لا تقولي لي إنك لم تسمعي يا أم صابر . قال شيئاً عن صديق له بإمكانه أن يساعدنا.. ولقد ذكر اسمه أيضاً ، قال إن اسمه الله ".

فقالت : " إن الله ليس كما تظن.. إنه ليس رجلاً "

قلت : " ما هو إذن ؟ هل هو امرأة ؟ "

قالت : " لا لا.. ولا امرأة أيضاً "

سألتها بإصرار : ما هو إذن ؟

قالت : " أرجوك يا بني ، لا أريد أن أطرد من عملي اسأل والدتك عن الله .."

بعد يومين ذهبنا إلى نزهتنا في بساتين السد شرق المدينة عند ضفة النهر . انطلقنا بثلاث عربات استأجرها والدي.. وعندما وصلنا ، بينما كنا نضع أمتعتنا ، لاحظنا مجموعة من الصبيان لم يكونوا قد جاؤوا للعب أو التنزه ، كانوا يرتدون ثياباً رثة ويحملون خراجاً معهم ، قالت عمتي لأمي وهي تشير إليهم : " انظري إنهم الأراذل هنا أيضاً.. لم يعد ممكناً أن نخرج لنتنزه دون أن نراهم ونرى منظرهم ، لقد أصبحت أخاف على الأولاد من الاختلاط بهم أو حتى صرت لا أستبعد أن يؤذوهم ، رحمتك أسيتها الآلهة " .

دفعني فضول إلى الاقتراب أكثر فأكثر من أولئك الأراذل أو الأوباش كما وصفتهم عمتي فهيمة.. وما إن اقتربت منهم أكثر حتى وجدتهم يجمعون فضلات الطعام ويضعونها في أكياس.

سألتهم بدهشة : " ماذا تفعلون ؟.. "

أجاب أحد الصبية : " نجمع الطعام ونأخذه إلى عوائلنا ؛ لكي لا يناموا جياعاً "

فقلت : " سيأكلونه ؟.. "

قال : " النوم جائعاً يجعلك تأكل أي شيء "

قلت : " وجبات الطعام الرئيسية الإفطار، والغداء ، والعشاء.. هل كلها تأخذونها من هنا ؟ "

قال : " إنها وجبة واحدة فقط.. نحن لا نأكل سواها "

وفي أثناء العودة جلست أفكر وأحسست بأن الشبع ذنب ، وأن تلك الوجبات وما بينها ذنب.. وبدأت أعي أن الأمور أحياناً لا تكون بالأشبار أو بالطول.. أو بمظهرها..

بالضبط كما قال نوح..

وتذكرت نوحاً.. تذكرت كلامه من جديد.. وأحسست أن كل ذلك يرتبط بما قاله ، عن ذلك العالم الذي يحتاج إلى التغيير.. العالم الذي لا أريد أن أكبر فيه..

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

الفصل الثاني

كنت ، كما كل أفراد عائلتي ، نبدأ كل يوم من أيامنا بالصلاة لآلهة السد.. أحياناً نصلي أمامها عند البهو . وأحياناً يخرجها أبي إلى الباحة عندما يكون الجو لطيفاً ، فنصلي جميعنا هناك .

كان والدي شديد التدين والورع ، وهو يتابعنا جميعنا من أجل أن نكون متدينين.. ذهبت ذات أمسية بعدما عاد أبي من سفره ، وقد حزمت أمري على أن أعرف منه كل الأجوبة عن الله ..

فقلت له : هل كانت رحلتك ناجحة يا أبتِ ؟

قال : نعم ، حمداً للآلهة على ذلك..

قلت : عندما صليت قبل ذهابك.. هل فعلت ذلك لأنك مؤمن؟

قال : نعم

قلت : هل الفقراء ليسوا مؤمنين يا أبي ؟.. لأن الآلهة لا تستجيب لدعائهم

قال : إن الآلهة ليست رحيمة وعطوفة فقط ، بل حكيمة أيضاً.. فبقاء هؤلاء الفقراء على الوجبة الواحدة هو الضمانة الوحيدة لبقائنا نحن على ثلاث وجبات.. لو أنهم أكلوا ثلاث وجبات لما بقي من الطعام في المدينة ما يكفي لنأكل جميعاً ثلاث وجبات.. ربما سنضطر عندها إلى أن نقلل من طعامنا.. والآلهة العطوفة الرحيمة لن ترضى بذلك طبعاً ، لذلك فحكمتها قررت أن تجعل من جوع الفقراء ضمانة للتوازن لكي لا نجوع نحن ، ألا ترى كم هي حكيمة ؟

شعرت بالرعب ، وصرت أرى الآلهة المقدسة كما لو أنها بوجهين دوماً ، وجه رحيم وعطوف ووجه بشع وقاسٍ.. بطريقة ما صرت الآلهة المقدسة هي آلهتنا نحن الأثرياء فقط..

هكذا فهمت الأمر..

وتساءلت : هل هذا هو السبب في أنني لم أر أم صابر تصلي للآلهة ، ولا مرة واحدة ؟..

قالت نميمة : " هل سمعتن ما أعلنه السيد نوح مؤخراً ؟.. يقول إنه سيفتح مدرسة جديدة ، هنا في الحي أو الحي المجاور على الأغلب " .

قالت أمي : " لم تكن مدرسته مجانية وللفقراء وفي حي الأراذل ؟ "

قالت غلاظة : " نعم ! إنه مخدوع بهؤلاء الفقراء ، لا يدري أنهم متى ما شبعوا وتعلموا بدؤوا بإثارة المشاكل "

قالت أمي : " لا أعرف ما الذي يمكنه أن يفعله هنا إذا نقل مدرسته ، أولادنا كلهم في مدارس خاصة ولا يحتاجون إلى (تعليم مجاني) "

قالت غلاظة : " لابد أنه أفلس وأغلق ويريد أن يتكسب هنا.. لكني لن أرسل أولادي لمدرسته بكل الأحوال "

قالت نميمة : " لم يغلق مدرسته.. إنه يفتح فرعاً جديداً هنا فحسب "

قالت أمي : " لكن أولادنا لا يحتاجون إلى التعليم ، إنهم متعلمون أساساً "

قالت نميمة : " سمعت أنه يقول إنه لن يعلمهم ما يتعلمونه في المدارس ، بل شيئاً آخر.. لم أعرف بالضبط ما هو "

قالت تفاهة : " سمعت هذا أيضاً ، قال إنه يريد أن يعلمهم الحياة الحقيقية.. "

" انس الأمر ! " صاحت بي أمي ولم أكن قد أكملت جملتي..

" لكن يا أمي.."

" انس الأمر " صرخت بصوت أعلى..

" دعيني أكمل يا أمي "..

" أعرف ما تريده يا نور ، أنت تريد أن تدخل هذه المدرسة الجديدة ، وأقول لك انسَ الأمر ، وانسَ المرة التي أخذتك إليه "

" أمي قولي لي لِمَ لا تريدينني أن أذهب إلى مدرسة السيد نوح "..

" قلت لك انس الأمر ، والدك لن يقبل مهما حاولت "..

" والدي لا يرفض لي طلباً "..

" ليس عندما يتعلق الأمر بالسيد نوح ، كن على ثقة من ذلك "..

مساءً وعندما تناول طعام العشاء ، وبعد أن صلى والدي للآلهة المقدسة ، قلت له : " أبي ، هل أستطيع أن أحضر بضعة دروس في المدرسة الجديدة التي ستفتح الأسبوع المقبل.. بدؤوا بتسجيل الأسماء ، وهي مجانية.. ويقولون عنها إنها مدرسة مختلفة "..

لاحظت وجوم والدي ، ولاحظت أيضاً أن أمي سكتت وهي تراقب رد فعله ، ابتلع أبي ريقه وقال : " هل تقصد مدرسة هذا الرجل الذي يسمونه نوحاً ؟.. " .

تظاهرت أني لا أعرف اسم الرجل وقلت : " لست واثقاً.. ربما.. لا أعرف من هو مديرها بعد " .

قال بحزم : " انسَ الأمر ! "

ثم نهض من المائدة قبل أن ينهي طعامه وأشار لأمي أن تتبعه..

سمعت صوت شجارهما قادماً من غرفتهما.. سمعته يقول لها : " أنت السبب ، كان يجب أن أعرف أن ذلك سيحدث " وسمعتها تبكي وتستعطفه وتقسم له أن لا شيء حدث..

لم أفهم شيئاً من كل ذلك ، لكني واثق أن أبي قال : إن نوحاً يسب آلهة السد العظيمة..

بعد أيام سمعت من والدي أن رجال المدينة قد قرروا الاجتماع لمناقشة ما يجب عمله بشأن نوح ، وقد استقر رأي الجميع في الاجتماع على إحراق مدرسة السيد نوح ، ولكن بعد أن يكمل بناءها ، وذلك من أجل تلقينه درساً عبر خسارته كل أمواله التي أنفقها على تعمير البناء..

في الموعد المقرر تجمع الناس وبدؤوا برمي شعل النار على المدرسة.. كان نوح موجوداً أيضاً ، وددت أن أذهب قريباً من كل ذلك.. لكن أمي منعتني وصعدت بي إلى السطح.. هناك كان يمكننا أن نشاهد من علو ما كان يدور غير بعيد عنا.. كان نوح واقفاً أمام مدرسته وهي تحترق.. لم يكن معي سوى ابنه الذي يلازمه في كل مكان تقريباً..

سمعت أمي تتمتم وتقول : " كيف يحتمل قلبه أن يرى تعبه وهو يحرق.. لن يكف أبداً نوح هذا "

قلت : " لن يكف عماذا ؟ "..

" عن محاولاته لتغيير العالم "

" هل حاول قبلها ؟ "..

" نعم ، دائماً.. منذ أن كنت صغيرة في سنك وأصغر "..

" منذ أن كنت أصغر مني ؟ تصورت أن نوحاً كان صغيراً آنذاك.. تصورت أنه في مثل سنك أو أكبر قليلاً.."

" لا.. نوح دوماً هكذا.. لم نرَه إلا هكذا.. لم يتغير.. لا نعرف له بالضبط سناً معيناً ، كما لو أنه توقف عن النمو عند هذا السن "..

فجأة صارت فكرة نوح الذي لا يشيخ أبداً شديدة الجاذبية والسحر.. إنه بطريقة ما مثلي ، أنا توقفت عن النمو قبل أن أكبر ، وهو توقف في الوقت المناسب..

" نوح لا يكبر إذن ؟ "..

" لا أحد يعرف بالضبط . كل ما نعرفه أننا وعينا الدنيا وتفتحت أعيننا ونوح أمامنا.. كبرنا وبقي هو شاباً.. لم يهرم.. والأهم من ذلك أنه لم يتغير.. لا يزال يحاول "..

" وهل كان يخفق دائماً ؟ هل كانوا يحبطون له ما يفعله دوماً ؟ "..

" نعم.. كما ترى الآن.. أحرقوا له مدرسته وقبلها منعوه من توزيع أمواله على الأراذل.. ومرة ألّبوا عليه الأراذل أنفسهم وكادوا يقتلونه.. واتهموه بالشعوذة عدة مرات.. وحاكموه مرة بتهمة الخيانة لمصلحة دولة أخرى ، لكنه لا يكف أبداً "

قلت بتردد : " ربما لأنه يتحدث عن الآلهة بسوء ؟ لذلك فالتوفيق لم يصبه ؟ "

قالت بصوت خفيض : " ربما.. وربما لأن إلهه يريد أن يمتحنه ، أن يثبت له أن الأمر صعب "

" إلهه ؟ نوح له إله ؟ " غمغمت مع نفسي.. كانت هذه معلومة جديدة بالنسبة إلي .

مضى الوقت.. خبت النار قليلاً.. رأيت نوحاً وابنه يجمعان الحطب.. وكان يجمعه في رزم متراصة.. ويشعل رأس كل رزمة.. ويضعها واحدة على جنبات الطريق.. لم أفهم أولاً ماذا كان يريد أن يفعل.. ومع استمرار عمله.. فهمت لقد كان ينير الطريق العام..

فهمت ما قالته أمي من أنه لن يكف أبداً نوح هذا..

قال النورس للأفق : هذه المرة كنت خائفاً فعلاً من أنه سينكسر..

قال الأفق : كل مرة تقول ذلك..

قال النورس : نعم صحيح.. كل مرة أكون خائفاً فعلاً.. وكل مرة يثبت لي أنه أقوى..

قال الأفق : إنه مختلف عن الآخرين.. طالما أثبتوا لنا أن مخاوفنا كانت في محلها.. طالما انكسروا من أول مرة..

قال النورس : لاحظ أنه لم يهرب.. واجه النار واستطاع أن يأخذ منها شعلة..

قال الأفق : نعم.. لقد جعل من هزيمته وسيلة أخرى للانتصار.. لم يُضِعْ وقته في وضع خطة أخرى.. لم يمر بفترة نقاهة لتلتئم فيها جراحه..

قال النورس : ربما الجروح لا تلتئم إلا هكذا.. بالعمل ؟..

قال الأفق : نعم.. يبدو ذلك.. وأتمنى أن يسرع.. فلقد سئمت الانتظار..

قال النورس : لا تستعجل ! أحياناً يكون التعجل سبباً في الانكسار.. ومن ثمَّ في اليأس..

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

الفصل الثالث

لم يكن هناك حديث في المدينة طوال الأسبوعين الماضيين إلا ما فعله نوح .

ربما لم يكن هذا حديثاً بالضبط ، كان الضحك أكثر من الحديث ، فما إن رأى الناس السيد نوحاً وهو يقوم بجمع القمامة المتناثرة في الشوارع حتى ضجُّوا بالضحك والاستهزاء والسخرية . ذلك أن هذا العمل كان خاصاً بالرعاع من الأراذل ولم يسبق لأحد من أشراف القوم ، أن عمل بذلك ، حتى فكر بالأمر ، بدأ الأمر بنوح عندما قام بتنظيف أنقاض مدرسته التي انهارت تماماً بفعل الحريق ، وبعدها نظف الشارع المجاور من الآثار التي خلفها حمل أنقاض المدرسة ، وهكذا شيئاً فشيئاً ، صار نوح يدور على الشوارع والأزقة ، يجمع ما يرميه الآخرون .

في البدء كان الاستغراب من قبل الناس ، قالوا : إن الرجل جُنّ تماماً ، وإن الآلهة مسته بسوء. فصاروا يتعمدون نثر القمامة يميناً وشمالاً ليزيدوا من عمل نوح ، بل إن بعض الأطفال ، بتشجيع من أمهاتهم ، صاروا يلقون بالقمامة عليه.. أو أمامه.. كما أن بعض الأمهات أصبحن ينادينه لحمل القمامة من البيت ، ويعطونه عملة نقدية (إكراماً) له ، كما يفعلون مع الخدم والأراذل..

كنت أراه كل صباح يقوم بمهمته ، تقدمت إليه وكان لا يزال يعيد جمع ما نثره الصبيان . أخذت أجمع معه بصمت . نظر إلي وقال مع ابتسامة : " ما اسمك ؟ " قلت : " نور ". نظر إلي كأنه يتذكر : " (نور)..؟ ألست أنت الطفل الذي لا يكبر ؟.."

هززتُ رأسي ، وقد غمرني شعور بالفرح لأنه تذكرني..

قال : " اسمع يا نور ، إننا لا نكبر حقاً إلا عندما نضيف شيئاً إلى ما حولنا ، إلى هذا العالم.. اذهب الآن وقس طولك ، وسترى أنك قد كبرت قليلاً.. وتذكّر دوماً ، أننا لا نكبر حقاً إلا بقدر ما نضيف ، بقدر ما نقدم من إضافة.."

لست متأكداً من أني فهمت ما قاله ، لكني ركضت إلى البيت لأتأكد مما تصورت أني فهمته ، ذهبت إلى ذلك الحائط الذي وضعت فيه أمي علامتي الثابتة.. أمسكت بالقلم فوق رأسي ، ووقفت بجانب النقطة . وضعت علامة تثبت طولي ، ونظرت فإذا هناك فرق فعلاً.. فرق صغير جداً..

هبطت مسرعاً إلى باحة المنزل لأخبر أمي بالأمر ، لكني تذكرت بأني سأعاقب عندما تعلم بأني تحدثت إلى نوح ، فتراجعت ..

قال النورس للأفق : ألا تظن أنه تمادى قليلاً هذه المرة ؟

قال الأفق : من تقصد ؟ نوح ؟

ردّ النورس : بالتأكيد ، مَن غيره ؟

قال الأفق : لا أبداً ، أرى أنه فعل الصواب .

النورس : لكن تنظيف الشوارع ! كان يدعو إلى الله الواحد ، إلى نبذ الشرك.. والآن ينظف الشوارع ! .

الأفق : ربما يجب أن تكون الأمور هكذا ، يجب أن تبدأ من هنا ، الأفكار الكبيرة يجب أن تنزل إلى الشارع !..

النورس : تنزل إلى الشارع فهمناها ! ولكن أن تنظفه ؟! .

قال الأفق : بالتأكيد ، التغيير يجب ألا يكون مجرد فكرة في الرؤوس ، بل أن يكون حقيقة يراها الناس ، هنا يمكن أخيراً لنوح أن ينجح.. ثم لا تنسَ ، إنه مجرد حلم . وليس على النائم حرج !

في الأيام التالية ، صرت أترقب مرور السيد نوح ، وهو ينظف الشارع ، ما إن أراه حتى أهب لمساعدته وأنا أتلفت يميناً وشمالاً خوفاً من أن يراني أحد من إخوتي أو من الجيران أو من الخدم ، ويخبرَ أمي وأبي ويصيرَ منعي من الخروج أمراً محتماً .

بعد كل مرة كنت فيها أساعد السيد نوحاً ، كنت أركض لأقيس طولي.. ومرة بعد مرة ، كنت أصاب بخيبة الأمل . لم يكن هناك من زيادة .

خرجت ذات ظهيرة عندما مرّ كعادته ، وأسرعت ألمّ ما يرميه الجيران والمارة وأنا أتلفت حولي خوفاً من أن يراني أحد.. عندما اقتربت منه ، ثبت عينيه علي وقال لي : " نور.. أنت تنظف الشارع وأنت مرتبك ، تتلفت خجلاً مما تفعل.. أو خوفاً مما تفعل " .

هززت رأسي موافقاً ، كان ذلك واضحاً جداً وما كنت أخفيه أصلاً .

قال : " عليك ألا تخجل مما تفعله . عليك أن تكون فخوراً به ، عليك أن تحبه " ، ثم سألني " هل تعرف معنى كلمة شموخ ؟ "

هززت رأسي بالنفي..

قال : " أن تكون شامخاً يعني أن يكون رأسك مرفوعاً حتى عندما تنحني للأرض لتزيل عنها أذى الآخرين وإهمالهم.. نور.. تذكر أنك يجب ألا تفعل ذلك لكي يزداد طولك.. بل لكي تكبر.. لأننا لا نكبر إلا عندما نفعل الشيء الصحيح "..

ومضى..

سجلت كلماته في ذاكرتي وتدربت على ما قاله ، صرت أقل خجلاً وخوفاً وانزعاجاً ، مع الوقت شعرت بالفخر..

كان جزءً من الحصاد هناك على ذلك الحائط ، كنت أجد الفرق هناك ، في زيادة طفيفة نعم ، لكنها كانت هناك ، تتراكم بالتدريج.. لقد كنت أكبر ، بالضبط كما قال السيد نوح ، كان شيء ما يضاف إليّ ، إلى طولي ، كلما قمت بالشيء الصواب من أجل هذا العالم..

مع الوقت لاحظت أني لم أكن وحدي..

كان هناك آخرون ، صبيان وشباب.. أولاد وبنات.. في مثل سني ، أكبر وأصغر.. وصار بيننا ألفة ، صرنا نمشي في مجاميع.. نتبادل السلام ..

وذات مرة جلسنا معاً في الظل ، لنرتاح قليلاً ، وراودني ذلك السؤال الذي كان يتردد في ذهني ، عن الشيء الذي يجمعنا معاً ، إن كنت أنا أحتاج إلى أن أكبر ، فما الذي يحتاجه هؤلاء.. وهم الذين لا يبدو أنهم يشكون من أي مشكلة في ذلك..

سألتهم إن كانت مشاركتهم في هذا كله تزيد من طولهم كما يفعل معي . لم يبد أنهم فهموا سؤالي.. قال لي أحدهم : " هل تقصد أن نموك كإنسان يزيد عندما تفعل ذلك ؟ "

قلت : " لم أفهم ذلك.. ما معنى النمو كإنسان ؟ .. "

قال آخر : " معناه أنه كلما أدى الإنسان ما عليه ازدادت مهارته في وظيفته . ولذلك فإن عملنا في تنظيف الشوارع ، ينمي مهارتنا في وظيفتنا الأصلية ، التي خلقنا من أجلها "

سألتهم : " ماهي الوظيفة التي خلقنا من أجلها ؟ "

تبادلوا جميعاً النظرات ، كأنهم يستغربون سؤالي..

هز أحدهم كتفيه " ماذا تعني ؟.. إصلاح العالم طبعاً " .

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

الفصل الرابع

تجري الأمور أحياناً بشكل غريب . أذهب لالتقاط النفايات من الشارع ، فأجد نفسي أحاول إصلاح العالم.. هكذا بدا الأمر لي للوهلة الأولى عندما جلست مع أولئك الصبية الذين كانوا مثلي ، ينظفون الشوارع..

ذات يوم قال لنا واحد من الصبيان : " إن النفايات التي يلقيها الناس ، والإهانات التي يرمونها علينا ، متشابهة ، بطريقة ما ، إنها بكل الأحوال أذى ، سواء كان ما يرميه الآخرون ، أو ما يقولونه.. وهذا (الأذى) الذي يجب أن نزيحه من الطريق إذا كنا نريد أن نمضي فيه قُدماً "

سألت : " وإلى أين يذهب هذا الطريق ؟ ، تبادلوا النظرات فيما بينهم ، وقال أحدهم : " إصلاح العالم طبعاً "

ليلتها لم أنم.. تسللت من المنزل قطعت مسافة كبيرة في الظلمة ، وصلت إلى بيت صاحبي ذي الرجولة المبكرة . كنت أعرف نافذة غرفته فألقيت بحجر ، ثم بآخر كي يستيقظ . رأيته يفتح النافذة وينظر ، أشرت له ، هبط مسرعاً وكان بيده قنديل مضيء . سألني : ماذا ؟ هل حصل شيء ؟..

قلت له : إن الخطوة الأقل هي إماطة الأذى ، فما الخطوة الأعلى ؟..

قال : إنها خطوة " لا إله إلا الله "

ولا أذكر أي شيء بعدها ، لست واثقاً من أني فهمت ما قال.. لكن فجأة غمرني النور.. هل كان القنديل ، أم كانت الكلمات.. لا أدري.. كل ما أذكره أني شعرت باستغراب شديد ، لقد خرجت لأساعد نوحاً وها أنا ذا الآن مع هذه الجملة : " لا إله إلا الله "..

قال النورس للأفق : هل شعرت بما شعرت به أنا ؟

رد الأفق : نعم..

قال النورس : لقد أقشعر جلدي عندما قالها .

قال الأفق : نعم ، وأنا أيضاً .

قال النورس : مع أن كثيرين يقولونها أحياناً ، لكني لا أشعر بشيء..

قال الأفق : ربما هو الصديق..

قال النورس : ربما..

قال الأفق : وربما لأنها كانت كالضوء في قلب العتمة .

قال النورس : ماذا تقول ؟.. إنها دوماً الضوء في قلب العتمة ، المشكلة في الناس الذين لا يحاولون أن يروا هذا الضوء..

قال الأفق : نعم.. هذه المرة إنه الضوء الذي رآه بعض هؤلاء الناس..

صحا الناس ذات يوم في مدينتنا ليجدوا منطاداً ضخماً – غريب الشكل – جاثماً على المدينة.. لم يكن الناس عندنا قد رأوا منطاداً من قبل . لم يكونوا يعرفون أصلاً المنطاد . كل ما رأوه كان شيئاً غريباً معلقاً في الفضاء ، أثار رعبهم ونشر البلبلة بين الناس.. صلوا ودعُوا الآلهة.

صباح اليوم الثاني ، وجد سكان المدينة منطاداً ثانياً ، شبيهاً تماماً بالأول ، وقد اصطف بجنب المنطاد الأول ، دب الرعب والبلبلة مجدداً.. لكن كل ذلك كان أقل مما حدث في اليوم الأول .

وفي اليوم الثالث ، وجد السكان ، منطاداً ثالثاً قرب المنطادين الأولين ، وتقريباً لم يذهب أحد لأداء الصلاة.. وفي اليوم الرابع ، تراكض الناس فور بزوغ الفجر ، وفعلاً لم يخيب أملهم وكان موجوداً هناك.. وصار واضحاً أن المناطيد بتتابعها تتهجى رسالة معينة لم تتضح معالمها بالضبط .

مع انقضاء الأيام العشرة وتتالي الأحرف ، انتشر في المدينة قولٌ دعمه الكهنة بشدة وهو أن هذه الأحرف لا تعني شيئاً ولا يجب الالتفات إليها..

كانت الأحرف ، بعد جمعها تقول هذه العبارة التي بدت كما لو أنها بلغة أخرى : الكولا لولا لولاها لما عرفنا الحياة !!

نام سكان المدينة ورؤوسهم حائرة مرتبكة برسالة المناطيد ، توقع بعضهم أن يكون كل مزحة سمجة ، سيتم تفسيرها بمنطاد لاحق ، ولذلك هبوا بعد الفجر ليروا المنطاد الحاسم . لكن ، وللمرة الأولى منذ نحو الشهر ، لم يكن هناك منطاد جديد..

فملئت الشوارع وحيطانها بملصقات ، تحمل مشترك واحد ، وهي عبارة : (الكولا لولا) ، (توج متعتك بالكولا لولا) ، (الكولا لولا معنى آخر للحياة)..

ومرة أخرى ، لم يفهم معظم الناس ما هي (الكولا لولا).. لكنهم أحبوا الصور ، أو أحبوا الناس الذين في الصور.. تساءلوا عن تلك الكولا لولا التي تجعلهم بهذا الجمال والشباب والحيوية ، بالذات تجعل ابتسامتهم وأسنانهم بهذا اللمعان..

حتى السيدات في مجلس أمي ، ومع استثناء السيدة تفاهة التي كانت قد سافرت عندما تم اكتمال أحرف المنطاد ، لم تربط واحدة منهن كل ذلك بذلك المشروب الذي قدمته لهن السيدة تفاهة احتفاءً بهن عندما رجعت من مدينة " الرجل الأبيض " ، وهو المشروب الذي حاز على إجماعهن الحاسم بأنه مشروب سيئ ولا يمكن إكمال شربه.. كن قد نسين كل شيء عن الأمر تماماً .

عادت السيدة تفاهة من مدينة الرجل الأبيض ، ومعها اثنتا عشرة حقيبة محملة بما اسمته " التسوق لموسم الربيع " ، من أشياء بدت كلها غير ضرورية في نظر كل السيدات اللائي دارت عليهن مع حقائبها ، واعتبرت هي رأيهن يدل أولاً على تخلفهن ، وثانياً على غير خفية..

أكدت السيدة تفاهة ما قالته السيدة نميمة ، من أن الأمر يخص الشراب ذاته الذي قدمته هي شخصياً لهن ، وقالت : إنها " تشرفت " بأن تكون أول من جلبته إلى المدينة ، وقالت إنها عملت هناك مع (أناس مهمين جداً) أن كل تلك المناطيد والملصقات ، كانت جزءاً مما يسمونه هناك (حملة دعاية) لتسويق المنتج . وهو (الكولا لولا) .

وبعد فترة ، أتت ملصقات جديدة تقول : " ترقبوا مشروب الكولا لولا ".. خلال ذلك الترقب ، بدؤوا الفتيات والصبيان بتقليد الصور في الملصقات.. كانت والدتي قد أعدت وليمة عامرة للسيدة حيزبونة للتدليل على كرمها وعلى مقدار احترامها ، لكن السيدة حيزبونة لم تمس شيئاً من الطعام ، مع أن والدتي ألحت ، كانت تتعذر كل مرة بحميتها.. وقد لاحظت شيئاً آخر ، وهو أن السيدة حيزبونة كانت قد جلبت معها قنينة ماء خاصة بها ولم تشرب من مائنا ، وهو الأمر الذي أثار حنق والدتي مع أن حيزبونة كانت تعلل ذلك بأن معدتها حساسة لأي مياه غير هذا النوع من المياه .

على العموم ، قالت حيزبونة في تلك الجلسة أشياء عديدة بدأت كلها بكلمة " يجب ".. قالت حيزبونة بصوت حاولت أن تجعله رقيقاً : " يجب أن تتغير مدينتكن يا سيدات ، إنها رمز للتخلف عن كل شيء ، يجب أن تلحقوا بركب العالم ، يجب أن تتغيروا ، يجب أن يتغير كل شيء هنا ، ويجب أن يتغير وضعكن أنتن النساء "..

ثم أردفت قائلة : "ألا تشعرن أنكن الأسوأ ؟ ألا تشعرن أنكن في وضع سيء للغاية ؟ " ، فلم ترد عليها واحدة من السيدات ، فكررت السؤال حيزبونة ، وقالت : " أن التغيير يجب أن يحدث ، وأن السيدات يجب أن يساهمن فيه ويدفعن أزواجهن للمساهمة فيه.. بعد كل شيء ، السيد "أبرهة" سينفق أموالاً طائلة من أجل أن تنعم مدينتكن بالتقدم ، ولابد على الأقل أن نظهر له أن أهل المدينة يستحقون ماله وجهده " .

قال النورس للأفق : " أبرهة ؟.. ما الذي جاء به إلى هنا.. أليس هو صاحب الفيل الذي حلول هدم الكعبة ؟ "

قال الأفق : " هو بعينه.. ولكن.. "

قاطعه النورس : " أعرف ماذا ستقول.. ستقول إن هذا حلم وليس على النائم حرج.. حفظناها.. "

رد الأفق : " هل تصدق أني هذه المرة بالذات لم أكن أريد أن أقول ذلك.. بل كنت أريد أن أقول إنه ربما يكون هناك ربط لا نعرفه بين الأحداث.. "

قال النورس : " ربط بين الأحداث..؟ كيف ؟ أبرهة الذي نعرفه أسود اللون.. وهذا الأبرهة قادم من مدينة الرجل الأبيض.. فكيف يكون هناك ربط بين الاثنين ؟"

قال الأفق : " ربما التشابه يتجاوز لون البشرة إلى العمق.. ربما الأمر أكبر.. ربما هنا أبرهة رمز لما هو أكثر من شخص (أبرهة).. صاحب الفيل.. "

قال النورس : " وهل تعتقد أنه سيكون هنا فيل أيضاً ؟

رد الأفق : " ربما الفيل سيكون شيئاً آخر.. اصبر قليلاً ودعنا نر.. "

في الأيام التالية شهدت المدينة مزيداً من الملصقات ، تحمل بشارة قرب إطلاق الكولا لولا.. وفي أثناء ذلك ، كنت لا أزال أخرج مع أولئك الصبيان والبنات ، ننظف المدينة ، وقد زادت نفاياتها كثراً منذ أن بدأت حملة الكولا لولا ، فالملصقات القديمة كانت ترمى في الأرض ، وكان الصغار يلعبون بها وأحياناً يمزقونها.. وكل ذلك كان يزيد من العمل .

كنت مضطرباً محتاراً ، كنت أهرب إلى النوم ، وأرى نفسي في سفينة غارقة ، وأحياناً كان يمر بي السيد نوح في الحلم ، وعلى كتفه يقف نورس أبيض وديع ، ولكنه لا يقول كلمة واحدة.. ولا حتى كلمة واحدة .

كنت بلا شك ، منجذباً للسيد نوح ، بهيبته وطلته وكلامه الجميل ، لكن كان من الصعب جداً أن أترك خلفي كل الآلهة التي تحميني وتعطيني وجبات الطعام الثلاث بينما تعطي آخرين وجبة واحدة فقط .

قال النورس للأفق : هل رأيتني ؟ كنت هناك ؟

رد الأفق : أين ؟

قال النورس : في الحلم الذي رآه نوح.. كنت واقفاً على كتف نوح شخصياً..

قال الأفق : ما الذي تقوله.. إنه مجرد حلم.. وكل هذا مجرد حلم.. إنه حلم داخل حلم !

قال النورس : ولكني كنت هناك ! على كتف نوح !

قال الأفق : كما لو أنك النورس الأبيض الوحيد في العالم..! دعنا نتابع ما يحدث فلربما يكون لنا دور أكثر من هذا..

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

الفصل الخامس

كانت أمسية صيفية حارة ، ذهبت مع أسرتي إلى البساتين المطلة على النهر ، تمنيت لو أستطيع أن أستوقفه قليلاً . أن أسأله : هل يصلي أيضاً لآلهتي..؟ هل يصل أن ينام لود ولسواع كما كنت أفعل أنا ؟..

أحسست أنني قطعت تلك الصلة بذلك العالم نهائياً ، علم الآلهة التي يعبدها أبي وأقاربي والتي عبدتها طوال حياتي . وأن عليّ أن أجد عالماً آخرَ لنفسي.. لم يكن في تلك الأمسية الصيفية ، غير عالم السيد نوح ، ولم يكن هناك سوى أن أذهب إليه ، أو الصبيان الذين أعلم أنهم يتعلمون عنده ، وأن أسألهم عن ذلك الإله الواحد الذي يقولون أن " لا إله إلا الله.. "

لم يكن القنديل في يده هذه المرة . كان جالساً مع رفاقه تحت ضوء القمر ، حيث كنت أعرف أنهم يلتقون ، ذهبت إليهم وجلست دون أن أسلم . نظر إلي ذو الرجولة المبكرة وقال : " كنت أعرف أنك ستأتي " .

لم أرد ، جمعت كل شجاعتي وقلت له بلا مقدمات : " قلت لي تلك الليلة أن لا إله إلا الله ".. توقفت عن الكلام . أحست بطعمها غريباً على لساني.. ركز ذو الرجولة المبكرة عينه علي وقال : " نعم.. وماذا ؟.. " .

ابتعلت ريقي وقلت : " ماذا عن بقية الآلهة إذن ؟.. "

قال : " لا تفعل شيئاً ، لا يمكنها أن تفعل شيئاً ، لأنها ببساطة غير موجودة.. "

رددت بعده بنبرة حائرة : " غير موجودة ؟ ، ماذا كان كل هذا إذن ؟ كل ما نشأنا عليه ؟ كل ما علمونا إياه ؟ "

ردد وهو يهز كتفيه : " غير موجودة " .

" إذن كل هذا كان كذباً ؟ "

" نعم ، فالبعض يكذب لأنه ينقل ما نقله الآخرون له . وكان ما نقله الآخرون كذباً ، أو غير حقيقة . البعض يصدق الكذبة ويقولها لآخرين ، والبعض يتعمد الكذب ، يستغله ، يستثمره بأقصى ما يستطيع.. "

" لكن لِم يتعمد أي أحد الكذب في هذا ؟.. لِم يكذب أي أحد ليقول إن هذا أو ذاك الإله موجود ؟"

" ربما لأنه لو لم يكن موجوداً فإن الكاذب سيفقد قوته.. أو سيفقد الأسباب التي تجعله قوياً "

" ماذا تقصد ؟ "

" عندما يقول هؤلاء إن الآلهة ترضى بالظلم ، وبالجشع ، وبأن يعيش البعض في ترف فاحش وآخرون في فقر مدقع ، فإن ذلك سيحكم من سيطرتهم على الوضع ، إذا كانت الآلهة راضية ، فهل يستطيع أحد الاعتراض ؟.. وآخرون لا يتعمدون ذلك ، لكنهم بالتدريج يصدقون وهماً اخترعوه.. ومع الوقت ينقلونه إلى آخرين يأخذونه على أنه حقيقة "

" ماذا تقصد ؟ "..

" ود ، وسواع ، ويغوث ، ونسر ، آلهة يعبدوها سكان مدينتنا الآن ، إنهم غير موجودين كالآلهة ، لكنهم كانوا موجودين ذات يوم فعلاً ، لكن ليس كالآلهة "..

" ماذا تقصد ؟ "..

" لقد كانوا رجالاً صالحين ، تركوا أثراً طيباً في المدينة ، أصلحوا الناس ، واستطاعوا أن يصلحوا العالم المحيط بهم ، وكانوا يدعون إلى الله الواحد الذي لا إله إلا هو.. عندما ماتوا ، صنع أتباعهم وتلامذتهم تماثيلَ تخلدهم كي يبقى ذكرهم.. فعلوا ذلك دلالة على محبتهم واحترامهم.. صاروا يصلون معهم في حياتهم.. مع الوقت ، وعندما جاءت أجيال جديدة ، صار الناس يصلون لهذه التماثيل.. صاروا يعبدونها.. وصار ود وسواع آلهة ، بعد أن كانوا رجالاً صالحين "..

بدا كل شيء واضحاً فجأة ، لكن مع ذلك سألته : " ماذا تقصد ؟ "..

" صار ود وسواع وكل أولئك الرجال الصالحين آلهة يستخدمها أصحاب القوة كي يحافظوا على قوتهم.. صاروا وسيلة للإبقاء على الظلم والفساد في هذا العالم ، بعد أن كانوا وسيلة لإصلاحه "..

قلت له : " وما الذي يجعل إله نوح مختلفاً عن ذلك كله ؟ كيف يمكن ألا يتحول أيضاً إلى وسيلة لإفساد العالم أو الإبقاء على الظلم فيه ، كما حدث مع أولئك الرجال الصالحين ؟ "..

" الله لا يقول لنا أبداً إن العالم مكان جيد.. لكن أسألني أنت سؤالاً آخر.. قل لي لِم لم يجعله هو أفضل ؟ "

" لماذا لم يجعله أفضل ؟ ".. سألت بذهول .

" لأنه جعل هذا هو امتحاننا ، جعل إصلاح العالم الاختبار الذي علينا أن نجتازه.. الله لا يزيف لنا الواقع كي يجعلنا نرضى به.. بل إنه يجعل من إعادة بنائه هي المهمة التي كلفنا بها "

شعرت أن العالم كله لم يعد يسعني ، صار كل شيء واضحاً مع هذه الجملة التي قالها ، كل هذا العالم الغامض ، الذي كان يحتاج إلى تفسير ، الذي كان يبدو كأحجية بلا حل.. صار له حل.. فهمت الآن كل شيء .

عدت إلى البيت ، وأحسست أني بحاجة إلى النوم.. فنمت.. وفي صباح اليوم التالي ، قالت لي أمي : " عجباً ، تبدو كأنك ازددت شبراً أو أكثر".. لم أحاول أن أتأكد على الحائط ، كنت واثقاً من ذلك .

بعد عدة أيام من هذا ، رأيتهم ينصبون شيئاً ضخماً في الساحة الرئيسية في المدينة ، شيئاً لم أتبين ملامحه لأنه كان مغطى بالقماش من قمته إلى أسفله..

وفي حفل إطلاق الكولا لولا ،أزيح القماش فإذا بالتمثال الضخم هو قنينة كولا لولا ضخمة.. وسيكون إلهاً جديداً واحداً.. من أشدهم سطوة.. ومن أكثرهم هيمنة.. إنه إلها جديد سيتقدم ليحتل الصدارة في المعبد.. بطريقة أو بأخرى .

شهدت مدينتنا في حفل إطلاق الكولا لولا ، ألعاباً نارية لم يسبق لها من قبل أن شهدتها ، الذي بدأ بعد كلمة قصيرة ألقتها السيدة حيزبونة ، حيث فيها جميع الحضور ، ووعدتهم أن العهد القادم سيكون عهد الكولا لولا بامتياز.. وبعد نحو نصف ساعة ، ظهر السيد أبرهة هابطاً بالمظلة ، مما بدا أنه من عمق السماء.. مما جعل أفواه الناس تسقط مشدوهة ،

وتساءل البعض إن كان السيد أبرهة الهابط من السماء هو من نسل آلهة السد المقدسة ، أو أنه بشر مثلنا .

لم ينطق السيد أبرهة في البداية ، بل اكتفى بالابتسام.. وبعدها قام بقص قطعة القماش التي غطت المجسم ، لتظهر قنينة هائلة الحجم من الكولا لولا.. لم يكن هذا كل شيء ، فبعد ثوان بدأت فقاقيع هائلة الحجم تخرج من فوهة القنينة ، لكن هذه الفقاقيع تمخضت عن سلالم متحركة ، و بدأت فتيات ينزلن عبر السلالم وفي أيديهن قناني الكولا لولا ، يوزعنها على الجمهور.. وبعدها عادت الألعاب النارية من جديد ، وأُكمل الحفل .

" أخزتك الآلهة يا تفاهة " هكذا استقبلت السيدات السيدة تفاهة عندما التقينها بعد الاحتفال للمرة الأولى.. فقالت السيدة نميمة : " كيف تقدمين لنا خل التفاح الفاسد وتقولين لنا إنه الكولا لولا ؟ " ، وأيّدتها السيدة غلاظة في الرأي.. أما السيدة تفاهة فمازالت مصرة بأنها نفسها التي قدمتها لهم من قبل .

افتتحت السيدة حيزبونة مكتباً في المدينة ، تستقبل الناس فيه ، فذهبت السيدة تفاهة إليها تبكي وتؤكد أنها لم تبدل شيئاً في الكولا لولا.. فقالت السيدة حيزبونة : " اطمئني ، لا شك أنه مجرد سوء فهم عابر "

لم يكن الأمر سوء فهم كما قالت السيدة حيزبونة ، بل لم يكن طعم الكولا لولا هو الذي تغير ، لكن براعم المذاق التي في طرف اللسان هي التي تغيرت ، (الذوق) هو الذي تم تغييره ، وهكذا كان سيحدث مع كل شيء..

كان ذلك هو البند الأول في خطة السيدة حيزبونة.. ما كان شيء سينجح إلا بنجاح هذا البند.. أن تتغير الرؤوس أولاً.. وبعدها ، سيكون كل شيء أسهل..

قال النورس للأفق : إن ذلك لا يصدق..

قال الأفق : ولم لا يصدق ؟ لقد كان دوماً يحدث ، كل ما في الأمر أنه كان يحدث أقل ، وأكثر بطئاً..

رد النورس : نعم ، لكنه يظل أمراً محزناً ، أن يصدق الناس كل ما يقال لهم لهذه الدرجة..

قال الأفق : الأمر أبعد من هذا ، إنه ليس أنهم يصدقون ما يقال لهم ، عقولهم هنا تلغى تماماً دون أن يشعروا.. إنها تنوم مغناطيسياً ، وهذا يعني أنها تنام ، ويساقون وهم نائمون .

كرر النورس : أمر محزن جداً..

قال الأفق : إنه عالم حزين..

قال النورس : ولهذا لابد أن يأتي.. لقد طال انتظاره.. متى يأتي..

قال الأفق : قلت لك سابقاً ، الاستعجال ، أحياناً ، يقتل القدوم كله..

استقر السيد أبرهة مؤقتاً في منزل كبير أشرفت السيدة حيزبونة على تأثيثه بشكل يليق به وبمكانته ، وفي الوقت نفسه بدأ العمل في بناء منزل آخر ، مختلفاً عن منازل مدينتنا ، من حيث البناء والشكل ، لقد كان ضخماً جداً..

لم يكن كل سكان المدينة فرحين بما يحدث في مدينتهم.. بل إن البعض من أهمهم تأثيراً لم يكن مرتاحاً لما يدور.. كان أول هؤلاء هو السيد عبد المال ، كبير تجار المدينة ، الذي أدرك أن بساط السيطرة على السوق سيسحب منه .

وبعد فترة افتتح متجر كبير يسمونه (المول) ، مع افتتاح قصر السيد أبرهة ، فأصبح الناس يشترون من مول القليس تاركين أسواق مدينتهم.. وصرن يلتقين في المطعم الملحق بالسوق ، وصرن يذهبن إلى هناك كل يوم ، بدل اللقاء الأسبوعي المعتاد..

ففكر السيد عبد المال ، ووجد أنه لابد أن يكون جزءاً من هذه الموجه ، فذهب إلى مكتب السيدة حيزبونة ولم يخبر أحداً..

قال النورس للأفق : هل سمعت ما سمعته ؟

قال الأفق : ماذا ؟

قال النورس : اسم المتجر.. قالوا اسم متجر أبرهة هو "القليس" !

رد الأفق : نعم.. سمعت..

قال النورس : أليس هذا هو اسم المعبد الذي بناه أبرهة الأصلي ، وحاول أن يجبر العرب على الحج إليه بدلاً من الكعبة ، ولما فشل في ذلك توجه إلى مكة لهدم الكعبة ؟؟

قال الأفق : هو بعينه..

قال النورس : المعبد صار متجراً الآن؟ أتساءل أنا عن معنى ذلك ؟

قال الأفق : أتساءل أنا عن شيء آخر..

قال النورس : ما هو ؟

قال الأفق : أتساءل إن كنت ستتحلى بالصبر قليلاً.. وتدعنا ننتظر لنرى ما سيحدث..

كان السيد عبد المال محرجاً من البدء بالموضوع ، لم يكن قد حضَّر أي شيء ليقوله أصلاً ، لدهشته ، وجد السيدة حيزبونة تسهل الأمر له بسؤال مباشر إذا كان المول الجديد قد أثَّر سلبياً على مبيعاته هو.. لم تحرجه السيدة حيزبونة في انتظار جواب ، إذ انطلقت تؤكد له أن السيد أبرهة لا يود خسارته على الإطلاق ، بل إنه يريد رؤية جميع التجار وهم يربحون ، " فقط يريدهم أن يتعاونوا " .

لدهشة السيد عبد المال ، قدّمت السيدة حيزبونة ملفاً كاملاً ، كتب عليه اسم السيد عبد المال شخصياً ، بخط كبير واضح ، وفيه مقترحات يتحول فيها متجر السيد عبد المال إلى (مول) كبير أيضاً في منطقة أخرى ، وقد أرفق الملف بخريطة للمول .

نظر السيد عبد المال إلى كلفة المشروع فوجدها عالية جداً وظهر ذلك على وجهه.. عاجلته السيدة حيزبونة " هل يقلقك المبلغ ؟ اطمئن ، نستطيع أن نقرضك ، وتستطيع أن تسدد

حصتك بعد عشر سنوات بالاتفاق ، أو ندخل بنسبة من الأرباح ، أو نكون شركاء في كل شيء.. "

كان العرض مغرياً جداً.. فقالت له السيدة حيزبونة فوراً : " إن السيد أبرهة لا يمكنه أن يستقر لمدة طويلة هنا ، وبإمكانه أن يوظف أهم الاقتصاديين من العالم ، ليتابعوا أعماله ، لكنه يريد أن يحافظ على الهوية الثقافية للبلد ، ولذلك فهو يريد أن يكون شريكه من قلب المدينة "

كان السيد عبد المال يريد التأجيل مع أنه يريد التوقيع ، فقط ليبين عدم لهفته ، حتى أسرعت تقول : " أعتقد أن السيد جشعاً قد يمر الليلة ، وهو أيضاً يمكن أن يحافظ على الهوية الثقافية للبلد.. "

قال السيد عبد المال بسرعة ، أين تريدينني أن أوقع ؟!

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

الفصل السادس

لم يكن السيد عبد المال وحده (ضد) ما يدور.. فقد كان نوح أيضاً ضد الكولا لولا..

قال لنا ابنه ، بينما نحن نقوم بتنظيف الشوارع ، إن والده ليس ضد (السلعة) أو ضد (الآلة) ، لكنه ضد تحويلها إلى إله ، إلى وثن من تلك الأوثان التي يعبدها الناس في المدينة..

قلت له وقتها ، إن ذلك يبدو بعيداً ، فأنا لم أرَ أحداً يسجد لما يشتريه من بضائع أو سلع ، أو يصلي لها.. أيدني بعض الصبيان أيضاً في ذلك ، قال لنا ابن السيد نوح : " إن عبادة الأوثان لا تقتصر على الصلاة لها أو السجود لها ، بل تكون أحياناً بشكل آخر من أشكال التعلق.. ليس بالضرورة أن تسجد لها حرفياً ، أحياناً يمكن أن يكون كل قلبك مشدوداً لها لكنك تسجد لوثن آخر.."

لم أفهم بالضبط . سألته مجدداً : " كيف يمكن أن نميز ذلك ، كيف نفهم ما هو مجرد شراء لسلعة جديدة ، وبين ما تقول عنه إنه عبادة للسلع ؟.."

قال : " تميز ذلك بسهولة . عندما تكون السلعة لخدمتك ، فإن اقتناءها لا يكون عبادة لها.. أما عندما تكون أنت لخدمتها ، فأنت عبدٌ لها "

عندما عدت إلى البيت وجدت أمي منهمكة في إفراغ غرفة كاملة جديدة تجعلها مخزناً لما اشترته في الأسبوعين الماضيين .

وفي المساء راقبتها وهي تخرج ما اشترته من الأكياس وتتأملها بوله وسعادة شبيهة بوله أبي عندما يصلي لود أو لسواع أو لباقي آلهة السد.. فهمت ما قاله لنا ابن السيد نوح ، من أن هذه السلع ، ستتحول لتصير إلهاً آخر من آلهة المدينة..

بعد أن جاءت الكهرباء ، بدأت أسرتي تتحلق حول المشهد ، يقضون الساعات مسمّرين في خشوع ، يذكرني بصلاة والدي أمام ود في الرخاء وأمام يغوث في الشدة.. حتى والدي صار يستعجل في صلاته ، لكي لا يفوته شيء..

لقد كان المشهاد متعاوناً جداً مع السيد أبرهة ، والقليس الكبير الذي يمتلكه ، إذ إن كل ما كان يقدمه كان يؤدي إلى القليس بأرقامه المتعددة ، بطريقة أو بأخرى.. لذلك لم أشعر بالدهشة أبداً ، عندما علمت أن المحطة الوحيدة التي تبث على المشهاد ، كان يملكها السيد أبرهة أيضاً..

قال النورس للأفق : ألم يكن ذلك مباشراً جداً ؟

قال الأفق : ما هو ؟

قال النورس : كل هذا الكلام عن السلع والتسوق وتحولها إلى آلهة.. كان مباشراً أكثر مما يجب..

قال الأفق : هل تقصد إنه كان واضحاً جداً ؟

قال النورس : نعم !

قال الأفق : وهل كان يجب أن يكون غامضاً إذن ؟

قال النورس : هكذا يكون أقل مباشرة !

قال الأفق : ولا يفهمه أحد ! ما فائدته إذن ؟

قال النورس : يكون فناً..

قال الأفق : اسمع يا صديق.. ليكن ما يكون.. بعض الأمور يجب أن تكون واضحة حتى لو كان فيها مباشرة.. بعض حوارات الناس العادية تكون مباشرة جداً ، هل علينا أن نلغيها لأنها كذلك ؟

حدث أول اصطدام واضح بين السيد نوح ، و"الأوضاع الجديدة" في حفل افتتاح متجر السيد عبد المال.. وفي يوم الافتتاح ، وقبل أن يبدأ الحفل الذي أشرفت السيدة حيزبونة على الإعداد الباذخ له ، بدأ السيد نوح خطته ، جلب معه تماثيلَ للأوثان التي يعبدها سكان المدينة

، ووضعها جميعاً في وضع منحن كما لو كانت راكعة ، ووضع أمامهم الكولا لولا وعلامتها التجارية ، وبعض الصور والملصقات الدعائية عن سلع أخرى . كان نوح يصيح بأعلى صوته : " كنتم تعبدون أوثاناً لا تنفع ولا تضر ، والآن أوثانكم تعبد أوثاناً تضر فقط . وفي الحالتين أنتم تتركون الإله الواحد الحق الذي خلقكم.. تتركون عبوديته التي من أجلها خلقتم ، وتصيرون عبيداً لمجرد سلع.. وكل هذا من أجل أن تزيد أرباح أولئك الذين يستغلونكم نحو عبادة هذه السلع.. "

في البدء جاء حراس المول وطلبوا بتهذيب من السيد نوح أن يبتعد ، لكنه لم يبتعد ، بل استمر . بعد قليل سقط قناع التهذيب وأمروه بوقاحة وفظاظة أن يبتعد ، بل أخذوا يسحبونه بقوة ، خاصة مع اقتراب موعد وصول السيد أبرهة . تدافع نوح والحراس ، حاول الحراس حمل الأوثان بعيداً وانتهى الأمر بتحطمها جميعاً وبقاء قنينة الكولا لولا في مكانها ، وهو الأمر الذي دفع نوحاً إلى القول : " أرأيتم ؟.. الآن تثبتون أنكم استبدلتم الوثن الجديد بأوثانكم القديمة.. ألا ترون أنكم مخطئون في الحالتين ؟.."

وتمكن الحراس وخصوصاً بعد وصول الحراس الشخصيين للسيدة حيزبونة ، من تقييد السيد نوح ومن معه واحتجازهم في مكان بعيد ، إلى حين انتهاء حفل الافتتاح .

أما السيدة حيزبونة فقد أقلقها ما فعله نوح ومن معه ، فما إن انتهى الاحتفال حتى أسرعت إلى مكتبها وأوصت مساعديها بإعداد تقرير عاجل عن السيد نوح وعن كل أتباعه .

" لا بد أن السيد نوحاً قد جنّ ، هل رأيتن ما فعله أمس في الافتتاح ؟ " . قالت السيدة تفاهة بسرعة عندما دخلت على السيدات اللاتي صرن يجتمعن في كافتيريا فندق الحياة السعيدة الذي افتتحه السيد أبرهة قبل أسابيع .

ردت السيدة غلاظة : " لا جديد مع السيد نوح "

قالت أمي : " لا أعرف ما الذي يريده نوح بالضبط من كل هذا.. إنه يتحدث عن إصلاح العالم.. وعن بناء عالم جيد.. أليس هذا هو ما يفعله السيد أبرهة والسيدة حيزبونة ؟ ألا يفترض به أن يكون معهما بدلاً من هذا "

قالت السيدة تفاهة : " أحسنت ، العالم الأفضل الذي كان السيد نوح يوجع رأسنا بالحديث عنه منذ أن كنا صغاراً يقدمه لنا الآن السيد أبرهة . وبدلاً من أن يشكره السيد نوح يشاغب عليه بتصرفات مسيئة كهذه.. إنه عندما يرى شخصاً ناجحاً يكون عدواً له.. قالت لي السيدة حيزبونة إنها أخذت أمر السيد نوح بشكل جاد لأنه يسيء إلى سمعة المدينة جداً . فبعد كل ما فعله السيد أبرهة للمدينة يظهر من بين أبنائها من يتهمه هكذا.." .

حدث كل شيء بسرعة . كنت عائداً لتوي من درس الحياة الذي يعطيه لنا ذو الرجولة المبكرة ، عندما جاء الحرس فجأة من الخلف وأخذوني ، لم أستطع أن أفعل شيئاً ، لم أستطع أن أقاوم .. وعندما وصلت إلى مركز الحرس ، رأيت كل أصدقائي الذين كانوا معي في الدرس .

أدخلونا جميعاً عدة مرات إلى شخص ، يسألنا أسئلة ، وبعد ذلك عزلوا كل مجموعة على حدة.. وضعوا كل أولاد الأغنياء في غرفة واحدة ، أما أولاد الفقراء (الأراذل) في غرفة أخرى

كل الأسئلة في التحقيق ، كانت تدور حول انتمائنا لما أسموه (التنظيم الفوضوي).. لم أفهم في البدء ما المقصود بالتنظيم الفوضوي ، ولم أفهم أصلاً كيف يكون التنظيم فوضوياً ، لكن مسار الأسئلة كله كان يقصد السيد نوحاً وأتباعه .

لم يستغرق الأمر طويلاً على أي حال . فبعد نحو ساعتين جاء والدي وقام باستلامي ، توقعت فورً أني سأضرب من قبل والدي ، لكنه لم ينبس بكلمة ، طول الطريق ظل صامتاً ، ومتجهماً في الوقت ذاته.. وحين وصلنا إلى البيت ، أسرعت للاحتماء بأمي ، اقترب والشرر يتطاير من عينيه . رفع والدي يده عالياً ورأيته يهوي بها بقوة ، أغلقت عيني وزدت اختباءً خلف أمي . سمعت صوت يده وهي تهوي ضرباً ، لم أشعر بالضرب . سمعت صوت أمي ، كانت يده تهوي عليها ، للوهلة الأولى ظننت أن يده سقطت عليها عن طريق الخطأ ، لكنه انهال عليها ضرباً ، كانت أول مرة أرى فيها والدي يضرب أمي . أمسك بها من شعرها وهو يقول : " كان يجب أن أعرف عندما أتزوج واحدة مثلك أن واحداً من أولادي قد يصبح كما كنت " .

قالت له وهي تصرخ من الألم : " ماذا تقصد ؟ ما الذي حدث ؟ " .

قال لها : " ابنك نور ، ها هو ذا قد كبر ليصير كما كنت ، ها هو ذا يتبع الصابئ نوحاً ، كما كنت أنت قبل الزواج " .

أمي ، كانت من اتباع نوح ؟..

لم أعد أسمع . دارت الأرض بي . أحسست أن ضربات أبي كلها لم تكن تعدل قوة هذه الجملة..

لم أشعر بعدها بشيء..

في صباح اليوم التالي ، ذهبت لأمي ، كانت تجلس في غرفة منعزلة ، كما لو أن والدي قد فرض عليها ذلك ، كان واضحاً أنها لم تنم . وأنها قضت الليل في البكاء.. احتضنتها.. وهمست في أذنها : " أخبريني.."

قالت من بين دموعها : " كنت لا أزال صغيرة ، وكنت أؤمن أن بالإمكان صنع عالم أفضل . لم أهتم حقاً للأوثان منذ أن كنت صغيرة . لم أشعر بشيء قط تجاهها . لكن كلام السيد نوح شدَّني . كان يتحدث عن إله واحد حقيقي . عن عالم آخر نصنعه بأنفسنا . آمنت بما قال . آمنت بالإله الواحد . آمنت بضرورة أن نبني عالماً آخر.."

" ما الذي حدث ؟ "

" صرت أشارك في دروس السيد نوح ، وأخرج مع تلامذته لمساعدة الفقراء وتعليمهم . كنت الأكثر نشاطاً في المجموعة . كنت شعلة من الحيوية . لم أتخلف مرة عن حضور درس أو مساعدة أحد "

" ما الذي حدث ؟ "

" لم يحدث شيء . هذه هي المشكلة ، لم يحدث أي شيء مما كنت أريده . العالم الذي كنت أنتظره لم يأت أبداً . لكن الذي أتى هو والدك ، أتى ليخطبني ، وكان فرصة لا تعوض لأي بنت ، ثري ووسيم من عائلة ، وتجارته ناجحة . كان لديه شرط واحد ، أن أنسى أمر نوح وإلهه الواحد "

" ما الذي حدث ؟ "

" قلت لنفسي أني لن أنسى أمر نوح والإلهه الواحد.. لكني سأوازن بين الأمور، سأتزوج والدك وأحاول إقناعه بالتدريج "

" ما الذي حدث ؟ "

" أخذتني الحياة ، أخذتني حياتي الجديدة ، كما يأخذ مجرى النهر القشة الصغيرة . حاولت أن أوقف الأمر ، لكن مع حياة الثراء والجلسات النسوية ، فقدت القدرة على كل شيء . لن أقول أني آمنت بالآلهة أبداً ، بقيت لا أهتم لها ، لكن كل تلك الشعائر والأعياد والعلاقات التي تحيط بها ، صارت تحيط بي مثل خيوط عنكبوت تحيط بحشرة ، لم أستطع الخروج منها "

" .. ونوح ؟.. والإله الواحد ؟.. "

" لن أقول أبداً أني تركت إيماني بالإله الواحد ، لكني كلما فكرت به كنت أخجل من نفسي.. لقد تركته ، وتركت نوحاً ، تركت تلك الفكرة عن ذلك العالم الجديد الأفضل ، وانغمست في العالم الذي كنت أحلم بتغييره ، بل صرت سيدة من سيدات ذلك العالم . كيف يمكن لي أن أواجه نوحاً.. أو ذلك الإله الواحد.. أو حتى أواجه تلك الفتاة التي كنتها.. دون أن أغرق في خجلي . لذلك فضلت أن أنسى . أن أحاول نسيان كل ذلك الماضي.. كما لو أنه لم يكن.."

" ما الذي حدث ؟ "

" لم يحدث غير أن تلك الفتاة حاولت أن تغير حياتي ، لكنها لم تستطع أن تغير شيئاً ، من الصعب جداً أن أترك كل ما أنا فيه اليوم لأركض وراء السيد نوح مهما كان كلامه مقنعاً وصادقاً.. قل لي أنت ، ما الذي يريده السيد نوح الآن ؟ طوال سنين مضت كان يتحدث عن عالم آخر ، عن عالم أكثر جمالاً ، وها هو ذا الآن هذا العالم قد جاء مع السيد أبرهة ، فلماذا يقاومه ؟ لماذا لا ينضم إلى هذا العالم الجديد ويساهم فيه ؟ "

قلت لها : " من قال إن عالم السيد أبرهة أفضل ؟ إنه عالم مختلف فحسب ، عالم أكثر بهرجه ، ومليء بالسلع ، لكن من قال أنه أكثر عدالة وإنه أفضل ؟ "

قالت أمي : " وإن يكن ، إنه أفضل من اللاشيء الذي انتظرناه مع السيد نوح ! لا يمكنك أن تجادل في هذا ؟ "

" لماذا هو أفضل ؟ لأن فيه قليساً وكولا لولا وسلعاً عشت حياتك السابقة كلها دون أن تتصوري حاجتها ؟ ماذا عن العدل بين الناس ؟ ماذا عن تحقيق ما خلقنا من أجله ؟ ماذا عما أمرنا به الله الواحد الحق ؟ "

" كنت أؤمن بهذا الكلام مثلك الآن.. كنت أقوله للجميع.. لكن قل لي كيف يمكن تحويله إلى حقيقة ؟ هل يمكن أن يبني بيتاً ؟ أو يشتري دواء لمريض ؟ "

" لكن هذا لا يجعل عالم السيد أبرهة أفضل من عالم السيد نوح ، عالم السيد نوح لم يحدث بعد ، لذلك لا يمكنك المقارنة أصلاً "

" وهذا ما يجعل عالم أبرهة أقوى . إنه موجود . أما عالم السيد نوح فهو مجرد كلمات.. مجرد أحلام "

قلت لها : " هذا هو الخطأ.. لقد حلمت بعالم السيد نوح ، وانتظرت أن يأتي . وهذا هو الخطأ ، لن يأتي أبداً عالم السيد نوح إذا كان كل ما نفعله هو أن نحلم به ، وأن ننتظره ، علينا أن نساهم في مجيئه.. علينا أن نبنيه.. علينا أن نجعله يأتي.. ثم أكملت ، أمي لم لا ترجعين ؟.. لم لا تعودين لذلك الحلم الذي علينا أن نحققه ؟ "

" ليس الأمر بتلك السهولة يا نور ، الناس يتغيرون ، أحياناً أكثر مما خططوا للأمر ، نور إذا كنت مؤمناً بالسيد نوح حقاً ، وبإلهه الواحد الحق ، فإياك أن تتركه لأي سبب ، لا تقبل بأنصاف الحلول ، إذا قبلت ، فلا تتخيل أبداً أنك ستغلب مجرى النهر ، سترى أن المياه أخذتك بعيداً ، ستلتفت ذات يوم ، وتحاول أن تعود ، لكن سترى أن النهر أقوى من ذراعيك.. ولن تستطيع.. هذا إذا استطعت أن تلتفت أصلاً "

قال النورس للأفق : يعجبني ذلك.. مباشر نعم ولكن حقيقي !

قال الأفق : إنه شيء محزن.. ما الذي يعجبك فيه ؟..

قال النورس : الذي يعجبني فيه أنه حقيقي ، الكافر هنا ليس شخصاً مسطحاً بلا أبعاد ، إنه ليس كافراً فحسب ، بل هو كافر مرّ بالإيمان ، لكن تراجع عنه بعد أن حاول أن يتصالح مع الواقع ، وهويحسب أنه سيتمكن من فرض شروطه على الواقع لاحقاً.. لكن الواقع هو الذي استفاد من التصالح .

قال الأفق : هذا صحيح.. لكنه مؤلم..

قال النورس : ربما الشفاء أحياناً يكون جزءاً من الألم ، لا يمكن لأحد أن يطلب الشفاء ويتذمر من الألم الذي يصاحب الالتئام

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

الفصل السابع

شهدت المدينة افتتاح عشرات الجمعيات الخيرية ، كلها برعاية السيد أبرهة ودعمه وإنفاقه..

قالت السيدة تفاهة : " لا أفهم لماذا يهاجم السيد نوح السيد أبرهة هكذا ، لم تعرف مدينتنا من هو أكثر طيبة منه ، حتى إني أعتقد أنه يساعد الفقراء الذين لا يستحقون المساعدة ، إنه طيب أكثر من اللازم.. تخيلوا يا سيدات أني اضطررت أمس لإعداد القهوة بنفسي ، لأن كل الخدم ذهبوا مرة واحدة لاستلام الحصة الشهرية.. حصة السيد أبرهة "

قالت أمي : " ذهبت أم صابر أمس لتسجل ابنها في قوائم المنح الدراسية التي فتحها السيد أبرهة ، عادت ورأسها مرفوع شبرين وهي تقول : إن ابنها سيدرس في الخارج ، كما لو أنها تعيرني بأن أولادي لم يدرسوا في الخارج "

قالت غلاظة : " إنهم مشكلة هؤلاء الفقراء ، قليلاً من المال فقط ويلتهموننا التهاماً ، ألا ترون حكمة الآلهة في إبقائهم كما هم ؟ "

قالت نميمة : " سمعت أنه يبرر ذلك بالقول إن الفقراء لو شبعوا لتحسنت أخلاقهم ، ولكفوا عن السرقة "

حدث انحسار حقيقي في أفراد مجموعتنا ، ليس لأن الشوارع صارت نظيفة فجأة ، بل لأن عدداً كبيراً من أفراد المجموعة قد حصلوا على وظائف بدوام كامل ، حدث ذلك فجأة وفي خلال أيام ، ثم تبين أن وظائفهم هذه قد توزعت في مول السيد أبرهة.. وفي فندق السيد أبرهة ، وفي مشهاد السيد أبرهة.. وحصل بعض منهم على وظيفة في مكتب السيدة حيزبونة ، التي أخبرتهم أنهم سيحصلون على دورات في مدينة الرجل الأبيض في شؤون المصارف من أجل التمهيد لافتتاح أول مصرف في المدينة والذي يملكه السيد أبرهة طبعاً..

لم يكن أحد منهم قد اعتبر أن عمله في مول السيد أبرهة أو حتى في مكتب السيدة حيزبونة ارتداد عن إيمانه بدعوة نوح.. فكان يقول السيد نوح باستمرار : " إن في كل طريق مفترقات طرق واضحة ، وإن علينا أن نتخذ القرار في كل مفترق ، وأن نتحمل نتائج قرارنا "

أما أنا فقد بكيت عندما علمت ، أن ذا الرجولة المبكرة قد انضم للعمل في المول ، حاولت أن أراه لأتأكد.. رأيته ، لكن وجدته قد تغير.. كان يتحاشى النظر في عيني مباشرة بينما كانت كلماته من قبل تنطلق من عينيه قبل أن تكون على لسانه . قال إنه مشغول بعمله الجديد وسيحاول أن يراني عما قريب ، ثم مضى كما لو أنه لا يريد أن يأخذ مني العدوى ، أو ربما لا يريد أن ينقل لي العدوى..

انكسرت.. بكيت سراً قبل أن أنام.. تذكرت أمي وما مرت به.. وعندما استيقظت ، أحسست أني قد انكمشت.. أني صغرت في الحجم.. لم أفاجأ عندما وقفت لأقيس طولي على ذلك الحائط.. ووجدت أني قد قصرت بعد ذلك..

قالت السيدة تفاهة : " إن الشخص الذي يحب مدينته عليه أن يستبدل أغراض البيت مرة واحدة كل سنة على الأقل.. أو يشتري بدلاً عنها حتى لو لم يستبدلها.."

قالت غلاظة : " ما دخل حب الوطن بعودتك محملة بالمشتريات من القليس ثلاث مرات كل أسبوع ؟! "

قالت تفاهة : " إنه كلما تسوقنا أكثر زادت أرباح المصانع أكثر ، وكلما زاد الإنتاج ، ومن ثمَّ زاد الدخل القومي للوطن.. فالعالم الجديد صار وطناً واحداً.. ولم يعد مثل ذلك العالم القديم الذي فيه عدة أوطان ، وعندما يزيد الدخل القومي في مكان ما ، فإن ذلك سيعود بالخير للجميع في كل مكان "

عندما أعلن مصرف المدينة عن البدء باستخدام (بطاقات حجرية خاصة) بدلاً عن القطع النقدية ، ثارت ثائرة التجار في المدينة ، خاصة أولئك الذين لم يتمكنوا من أن يشاركوا في مول ما ، أو أن يؤسسوا مولاً جديداً كما فعل السيد عبد المال..

قال النورس للأفق : أشم رائحة ما ، هل تشمها أنت أيضاً ؟..

قال الأفق : رائحة فخ مثلاً ؟..

قال النورس : يبدو ذلك متوقعاً جداً ، ألم يكن الطريق من بدايته أصلاً ، فخاً بطريقة ما.. أشعر أني رأيت هذا كله من قبل . هل تشعر بهذا أيضاً ؟..

قال الأفق : نعم .

قال النورس : هل كان هذا حلماً رأيناه من قبل ؟..

رد الأفق : ربما..

قال النورس : هل نحن نحلم الآن ؟..

قال الأفق : لا أدري !

الفصل الثامن

عندما نادتني والدتي لتقول لي إن أحدهم يطلبني تخيلت أي أحد إلا هو.. ذو الرجولة المبكرة ، بعد أشهر من ذلك الانكسار الذي سكن عينيه وجعلني أنكمش في حجمي وازداد قصراً..

كان واقفاً عند الباب ، لم يهرب بعينيه هذه المرة ، كما كان يفعل ، قال لي دون مقدمات : " كان السيد نوح على حق.. لقد تركت العمل في القليس ، ذهبت لأخبره ومررت على كل الزملاء لأخبرهم أيضاً واحداً واحداً.. أريد أن أتمكن من النظر في أعينكم جميعاً دون أن أختنق بها أو أهرب منها.."

قلت : " ما الذي حدث ؟.. هل تعرضوا لك ؟ "

قال : " أبداً.. كانوا كما وعدوا ، لم يتعرضوا بكلمة لما أؤمن به ، أو للسيد نوح.. أو لله الواحد الحق.."

" إذن ما الذي حدث ؟.."

" إنهم يتسللون ببطء ، لا يذكرون كلمة سيئة واحدة ضد الله أو نوح ، ولا حتى الأوثان الأخرى التي يعبدها قومنا ، لكنهم يجعلونك بالتدريج ، تتعلق بأوثانهم الجديدة ، يجعلونك تحبها ، وتحبها أكثر ، وبالتدريج ، سيجلونها محور حياتك ، ستدور حولها كما يدور حول الأوثان عبّادها ، وبالتدريج لن تعود عبادتك لإلهك بالحرارة نفسها.. شيء من طاقة التعلق سيتوجه إلى تلك الأوثان الجديدة ، التي تتحرك بخبث ودون أن تقول إنها أوثان "

" ما هذه الأوثان الجديدة بالضبط ؟ "

" بالضبط كما قال السيد نوح . إنها السلع.. كل سلعة جديدة يتعلق بها الناس ، ويدمنون شراءها هي وثن جديد.. شعرت أني أعمل سادناً في معبد آلهة لا أؤمن بها.. بعض من يعملون هناك لا يدركون ذلك ، لذلك فهم لا يحملون عبء الأمر ، أما أنا فقد أدركت ، وصار الأمر ثقيلاً جداً ، أثقل مما يمكنني احتماله.."

انصرف ذو الرجولة المبكرة بعدها..

قال الأفق للنورس : هل فهمت الآن لم اسم المتجر "القليس"..

قال النورس : لأنه يحاول أن يكون معبداً "بديلاً" ؟

قال الأفق : بالضبط.. بشكل مختلف ربما.. لكنه معبد بديل..

قال النورس : فهمت ! وفهمت أيضاً دور أبرهة.. يبدو أن هذا أهم بكثير من كونه أبيض أو أسود..

كانوا يتحدثون عن موعد ما دوماً..

موعد لنزول سلعة جديدة.. وموعد التنزيلات.. موعد لافتتاح مول جديد.. قال لهم نوح : ثمة موعد ما ، أهم من كل تلك المواعيد.. وإذا كانت كل المواعيد الأخرى ، يمكن أن تقدم ، أو تؤخر.. فإن هذا الموعد يتربص لهم ، بلا تقديم ولا تأخير..

قالوا له : أي موعد تقصد ؟..

قال لهم : موعدكم مع الله ، الذي سيحاسبكم على كل ما فعلتموه في هذه الدنيا ، هل ستأخذون معكم أكياس السلع آنذاك ؟..

قالوا له : صدَّعت رؤوسنا يا نوح بإلهك هذا.. ما الذي يفعله بالضبط ، وما الحاجة إليه أصلاً ما دام كل شيء موجوداً في القليس ، ويأتي به السيد أبرهة من مدينة الرجل الأبيض ؟..

قال لهم نوح : إن كل ما ينتجه الرجل الأبيض ، يجب أن يكون مصنوعاً من شيء خلقه الله.. تحداهم أن يأتوا بشيء واحد ليس مصنوعاً مما خلقه الله ، حاولوا أن يردوا ، بحثوا عن شيء واحد "خلقه" الرجل الأبيض وحده ، لكنهم فشلوا.. وسكتوا ، ثم أكمل قائلاً إن الإنسان مثل النبتة ،ليس فقط لأنه يحتاج إلى الماء لينمو ، لكنه يجب أن يكون مثمراً كما النبتة.. الإنسان الذي لا يثمر مثل نبتة عقيمة ، لا أهمية لوجودها ، ولا تحدث فرقاً.. وثمرة الإنسان هي أن يساهم في جعل العالم ، أكثر عدالة ، وأكثر توازناً.. جعل العالم عالماً أفضل.. لا أن يكون كل هدفه هو إنفاق ما صنع من الطبيعة..

قالوا له : " شمس وقمر ونبات وماء وها أنت ذا تحكي عنا وعن أولادنا ، ما الرابط في ذلك كله ؟.. هل جننت وصرت تحكي عن أمور غير مترابطة ؟.."

قال لهم : إن العالم كله ، بل الكون كله مترابط ، إذا انشغلتوا بتفاصيل صغيرة لن تدركوا ذلك ، لكنكم كلما حاولتوا أن تنظروا للصورة من بعيد ، فهمتوا ذلك الترابط.. إن انغماسكم بالسلع ، يعطل عندكم ذلك ويمنعكم من رؤية أن للإنسان مهمة خلق من أجلها.. كما خلق الماء من أجل مهمة.. وكما خلق القمر والشمس من أجل مهمة..

قالوا له : كفاك فلسفة ، إنما تقول ذلك لأنك لم تحقق شيئاً ، كلامك هذا لا يصرف في المول ولا يمكن أن يأتي لنا بسلعة نشتريها..

لم يكف نوح عن الإصرار في إقناعهم..

ولكنهم لم يكفوا أيضاً عن الصدود..

قال النورس للأفق : لقد رأيت هذا من قبل ، أنا واثق من ذلك ، لست أصلاً في حاجة للتأكد منك .

قال الأفق : نعم.. أنت محق.. هذا لاينسى.. لا يمكن أن ينسى.

قال النورس : شيء آخر لا يمكن أن ينسى ، لكني لا أراه هنا..

قال الأفق : هل تقصد عندما دعا عليهم..؟

رد النورس بسرعة : نعم ، في النهاية عندما كان نوح يحدث الله..

قال الأفق : ربما علينا أن ننتظر..

قال النورس : يبدو ذلك ، أنا بالذات انتظرت منذ مدة طويلة.. عليّ أن أقف على السارية كما تعلم..

قال الأفق : لست وحدك تنتظر.. عليّ أنا أيضاً أن أفعل شيئاً عندما يحين دوري..

أعلن مكتب السيد أبرهة ، فجأة وبلا سابق إنذار ، وعبر بيان مقتضب ، صحة الشائعات التي انطلقت في المدينة قبل مدة ، من أن ديوان أهل المدينة – عبر البطاقات والبيع الآجل والتقسيط – قدت جاوزت كل الضمانات المعطاة من قبل أهل المدينة ، ولأن هناك فوائد بنسب معينة على كل (دَيْن) ، فإن المبالغ المستوجب دفعها تصاعدت بسرعة ، بل إنها تضاعفت فعلاً..

مضت أيام والناس مترددة ، هل سيقبل (القليس) الشراء عبر البطاقات التي لم تعد ضماناتها كافية ، أم سيرفض ذلك.. لكن بض الأمهات ، أرسلن أولادهن ، مع البطاقة تلك ، في محاولة استطلاع خجولة أولاً ، ولدهشتهن ، وجدن أن البطاقة لا تزال تعمل ، مع كل ما قيل ، وهكذا دبت الحياة في المول مجدداً..

بعد بضعة أيام من الانتظار ، أصدر مكتب السيدة حيزبونة بياناً يقول فيه إن على من يرغب في معرفة حجم الدين المترتب عليه أن يقدم طلباً بذلك إلى مكتب السيدة حيزبونة ، وسيأتيه الرد لاحقاً..

" حكومة يختارها الناس ؟ " قال السيد جشع مستنكراً

" ما معنى هذا بالضبط ؟ "..

قال السيد عبد المال : " لا أدري ! ولكن هذا ما أكدته السيدة حيزبونة لي ولغيري.. قالت إن أمر تسوية الديون ، وإلغاءها لن يتم إلا عن طريق حكومة يختارها الناس "

قال السيد جشع : " ما بال حاكمنا الحالي ، لم لا يتم الاتفاق معه ونخلص ؟ "

" تقول السيدة حيزبونة إن الناس لم تختر هذا الحاكم . ولذا فقد يتمردون لاحقاً على أي اتفاق يحدث معه ، بحجة أنهم لم يوكلوه أصلاً ولم يختاروه ، أما إذا اختار الناس (مجلس إدارة المدينة) بأنفسهم ، وعقد هذا المجلس الاتفاقية مع السيد أبرهة فإن أحداً لن يجرؤ بعدها على رفض الاتفاقية "

" ولماذا يرفض أي أحد اتفاقية أسقطت ديونه ، إلا إذا كان مجنوناً ؟ "

" لا أدري. هذا ما قالته السيدة حيزبونة.. ربما يكون ثمة دين آخر مثلاً في اتفاق إسقاط الديون ؟ "

سألت السيدة نميمة : " مجلس إدارة يختاره أهل المدينة ؟ كيف يحصل ذلك ؟ "

قالت السيدة تفاهة : " أخبرتني السيدة حيزبونة أن ذلك يتم عبر صندوق مغلق سيجلب خصيصاً من مدينة الرجل الأبيض اسمه صندوق الاقتراع أو التقريع لست متأكدة ، وسنضع فيه من نريد أن يكون في مجلس الإدارة "

وبعد فترة ، أعلن بأنه أُختير السيد إمعة ليكون رئيساً لمجلس إدارة المدينة..

قالت تفاهة : " إن السيدة حيزبونة قد أخبرتها بأنه سيتم تعيينهم وزيرات "

صاحت السيدة نميمة : " وزيرات ؟ "

قالت تفاهة : " نعم ، فأنت يا غلاظة ستكوني وزيرة الإنسانية.. وأنت يا نميمة ستكوني وزيرة الأخبار الصحيحة.. وأنا سأكون وزيرة الثقافة "

لم يكن استبعاد أمي من التشكيلة الوزارية ليمر من دون شعورها بالغيظ ، حاولت السيدة تفاهة أن تقنع والدتي أن العدد المحدد للنساء كان ثلاث مقاعد فقط ، وأن حيزبونة كانت تود إشراكها إلا أن ذلك لم يحدث بسبب عدد المقاعد .

لم تقتنع أمي ، إلا أنها تصنعت عدم الاهتمام : " وهل كنت سأقبل أصلاً بوزارات سخيفة كهذه ؟ "

اغتاضت السيدة تفاهة ، فقالت : " إن السيدة حيزبونة قالت أيضاً الموافقة الأمنية على ترشيحك لم تحصل بسبب من ماضيك.. وبسبب من حاضر ابنك أيضاً "

ردت أمي : " ماضي وحاضر ابني ؟ ماذا تقصدين ؟ "

" تعلمين طبعاً.. السيد نوح "

قالت أمي : " ما علاقة هذا بذاك ؟ ومن هم أصلاً هؤلاء لكي يقيمونا نحن ؟ " ثم أكدت عدم اهتمامها بالأمر كله لكن وجهها كان يقول شيئاً آخر..

ما إن انتهى الاحتفال بإعلان تشكيلة الوزراء حتى عقدت السيدة حيزبونة اجتماعاً مع الوزراء.. وقالت لهم : " إن السيد أبرهة قد اختارهم لكي يختارهم الشعب ويقدم أسماءهم في الصندوق ، وذلك من أجل أن يقوموا أولاً بمهمة واضحة ومحددة ، وبعدها يفعلون ما يستطيعون أن يفعلوه مما يحلو لهم.. ثم أكملت ، أنتم هنا من أجل المعاهدة.. المعاهدة في حقيقتها (عقد بيع) ، لكنكم أنتم الرابحون فيه.."

قالت غلاظة : " وهل بقي لنا شيء نملكه بعد أن أصبحنا مدينين بكل شيء ؟ "

ابتسمت السيدة حيزبونة وقالت : " بلى ، بقي شيء واحد.. شيء واحد فقط تبيعونه لنا وننتهي من الأمر كله.."

قال الجميع : " ما هو هذا الشيء ؟ "

قالت : " أرواحكم.. تبيعونها للسيد أبرهة "

الفصل التاسع

انتشر نص المعاهدة في المدينة بفضل نشاط وكفاءة وزيرة الأخبار الصحيحة السيدة نميمة ، التي عممت النص ، وعممت معه القول ، الصفقة رابحة لدرجة لا تصدق ، ولدرجة أنه يجب الإسراع في إبرامها قبل أن يتراجع السيد أبرهة ويزيد من الثمن المطلوب..

كان موضوع الروح بالذات موضوع تنادر الأخبار التي روجتها السيدة نميمة ، فقد ركزت على من قال أن الروح هي شيء لا يمكن أن يرى أو يحس أو يوزن ، وهذا يجعله (عديم القيمة) لذا فإن تبادل الروح مقابل التنازل عن نصف الديون ، هو أمر في مصلحة سكان المدينة..

قال النورس للأفق : لم يحدث ذلك بالضبط..

قال الأفق : طبعاً..

قال النورس : لكنه يحدث دوماً، أيضاً..

قال الأفق : بالتأكيد.. دوماً.. القصة قديمة قد الشيطان نفسه..

قال النورس : نعم ، لقد ذكرتني الآن ما ذا كان اسمه هذا الذي باع روحه للشيطان مقابل أن يحصل على الحقيقة في تلك الأسطورة الغربية ؟

قال الأفق : ما الفرق ؟.. إنه ابن آدم آخر ، كان اسمه فاوست تلك المرة.. ولكن تتعدد الأسباب والبيع واحد.. أحياناً يكون المشتري اسمه الشيطان صراحة.. وأخرى يكون اسمه أبرهة . وتتغير الأسماء لكن عقد البيع يكاد يكون واحداً..

قال النورس : لكن لاحظ أن البضاعة في تلك الأسطورة كان ثمنها الحقيقة ، والآن صار "المزيد من السلع" وتغيير لون البشرة..!

رد الأفق : نعم ، هذا صحيح ، لقد هبط المستوى كثيراً ، لكنك تعلم أن النتيجة واحدة..

قال لهم نوح ، وهو يراهم لاهثين لعقد الصفقة : إنكم تبيعون أثمن ما لديكم لقاء ثمن بخيس.. أنتم الخاسرون في هذه الصفقة ، لأنها صفقة لا يربح فيها من يبيع روحه مهما كان المقابل..

ضحكوا منه ، بل أغرقوا في الضحك . سألوه عن أي شيء يتحدث ، وكيف تكون الروح التي لا ترى ولا توزن ولا تقاس ، أثمن ما يملكون ؟

قال لهم نوح : إن هذه الروح هي أثمن ما لديهم لأنها نفخة من روح الله نفخها فيهم كي يكون لهم ما يميزهم عن الحيوانات ، كي يكون لديهم تلك الصلة به..

ضجوا بالضحك مجدداً ، قالوا له هازئين : إنهم لا يرون إلهه هذا ، فكيف يرون ما نفخه فيهم..

قال لهم إن بعض أهم الأشياء في الحياة لا ترى ولا يمكن أن تقاس أو توزن.. لكن هذا لا يقلل من أهميتها ، سألهم إن كانوا يرون الهواء الذي يتنفسونه.. أو إن كان يمكن لهم أن يضعوه في الميزان ، أو يصرفوه في المول ، لكن هل يمكن لهم أن يتخلوا عنه.. هل يمكن لهم ألا يتنفسوا ؟؟

وضعوا أصابعهم في آذانهم . قالوا له إنه يجادل جدلاً لا فائدة منه..

قال لهم نوح إنهم يخسرون إرادتهم الحرة عندما يقدمون على بيع أرواحهم ، يخسرون إنسانيتهم ، يختارون أن يصيروا عبيداً للرجل الأبيض ، وهم إنما خلقوا من أجلأن يكونوا عبيداً لله .

ضجوا بالضحك مرة أخرى ، وطلبوا منه أن يكف عن الافتراء على السيد أبرهة..

قال لهم نوح إن السيد أبرهة لا يهتم حقاً بأرواحهم إلا لواحد من ثلاث أسباب ، الأول سيضمن أنهم سيشترون منتجاته كي تزيد أرباحه ، وقد تحقق له ذلك إلى أن أفلسهم . والثاني أنهم عندما سيفلسون سيقبلون على العمل عنده في مصانعه التي سيبنيها قربهم ، بأبخس الأجور وأدناها ، وهذا سيزيد من أرباحه أيضاً.. والثالث أنه ربما كانوا يمتلكون في باطن أرضهم كنزاً من المعادن التي يحتاجها السيد أبرهة لدوران مصانعه ، وعندما يبيعون له أرواحهم ، فإنهم سيكونون قد وافقوا على بيع ذلك الكنز بأي سعر يحدده أبرهة ، وربما بلا سعر على الإطلاق ، وهكذا يزيد ربحه أيضاً..

وضعوا أصابعهم في آذانهم لكي لا يسمعوا له..

طلبت السيدة حيزبونة من مساعديها باقة ورد كبيرة ، وكتبت بطاقة رقيقة موجهة إلى السيد نوح ، تطلب فيها بمنتهى التهذيب أن يشرفها بزيارته..

لم يتأخر السيد نوح ، أعاد لها الزهور مرفقة ببطاقة يعتذر فيها عن الحضور بشكل رسمي ومهذب في الوقت نفسه ، ويقول لها إن أرادت منه شيئاً أن تحضر هي بنفسها..

لدهشة الجميع ، ذهبت السيدة حيزبونة إلى بيت السيد نوح ، وعرضت عليه وظيفة مهمة جداً ، مديراً تنفيذياً لواحدة من أهم شركات السيد أبرهة بأجر خيالي ، وذلك مقابل أن يكف نوح عن محاربته للمعاهدة ، رفض السيد نوح ، وقال لها ما معناه إنها لو وضعت الشمس عن يمينه ، والقمر عن شماله ، لما ترك ذلك.. فقالت السيدة حيزبونة " ستندم على ذلك يا نوح "

قال النورس للأفق : (الشمس على يميني ، والقمر على شمالي) كأني سمعت ذلك ، لكن في مكان آخر تماماً.. وعصر مختلف تماماً.. أين كان ذلك ؟..

قال الأفق : هذا صحيح.. لقد حدث ذلك في مكة..

قال النورس : تماماً.. لكن ما الذي جاء بهذه الجملة هنا ؟..

قال الأفق : أعتقد أن شيئاً مشابهاً يحدث مع كل من يمتلك مبدأ وقضية ، يأتي من يساومه عليها ربما يكون ذلك جزءاً من طبيعة الامتحان الذي لا بد منه .

قال النورس : نعم.. وثمة من ينجح في الامتحان ، ويقول لو أن الشمس والقمر..

قال الأفق : وثمة من لا ينجح ، ويسقط في التجربة ، ويكون ذلك معناه أنه كان سيسقط بكل الأحوال..

قال النورس : نعم ، أتذكر هذا..

لم يمض بضعة أسابيع على نشر نص المعاهدة التي سيبيع سكان المدينة بموجبها أرواحهم للسيد أبرهة وشركائه ، حتى بدأت الاستعدادات تجري لإقامة حفلات ضخمة بمناسبة التوقيع على المعاهدة التي " ستضع المدينة على خطا التقدم والرقي".. وسيكون في الحفل نجم الموسم ، لم توضع صورته ولا اسمه ، لمزيد من الإثارة والتشويق..

وبعد فترة ، بدأ الحفل وتوقيع العقد على المعاهدة ، وجاءت لحظة الختام ووسط دهشة الجميع ، صعدت السيدة حيزبونة إلى المسرح ، وقالت : إنها مسرورة جداً لتقديم نجم الجيل الجديد الذي يمثل خيارات الشباب وأحلامهم..

كان نجم الشباب هذا ، الذي طلبت له ماكنة الدعاية طوال أسابيع ، من أجل الاحتفال بمعاهدة بيع الروح إلى السيد أبرهة هو الانتقام الذي توعدت به السيدة حيزبونة من السيد نوح .

كان الانتقام مجسداً في شخص نجم الشباب هذا.. رفعت السيدة حيزبونة صوتها وابتسامة لئيمة تعلو وجهها ، وهي تقول : " نقدم لكم النجم الجديد ، ابن السيد نوح ! " .

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

الفصل العاشر

قال النورس للأفق : لم يحدث ذلك حقاً..

قال الأفق : لا ، لم يحدث طبعاً..

قال النورس : لم إذن قد حدث هنا ؟..

قال الأفق : هل نسيت ؟ نحن في حلم . وليس على النائم حرج..

قال النورس : ولو ! يبدو ذلك أقوى مما يجب..

قال الأفق : لا تنس أنه قد كفر. وليس بعد الكفر ذنب..

قال النورس : لا أدري ، منظره على المسرح يثير الحزن .

قال الأفق بحسم : ليس أكثر من منظره على الجبل ، يوم سيكون ما يكون..

كانت السيدة حيزبونة قد أدركت من السيدة نميمة أن زوجة السيد نوح لم تكن متماشية مع مبادئه ، وأنها كانت شديدة التذمر من انهماك نوح في دعوته ، وإنفاق أمواله عليها ، بدلاً من إنفاقه على بيته وعليها شخصياً..

دعت حيزبونة زوجة نوح لجلسات السيدات ، فلبت الأخيرة الدعوة مسرورة ، لم تتورط السيدة حيزبونة بأي هدية غالية لزوجة السيد نوح ، حتى لا يكتشف نوح الأمر ويحبطه ، بل إنها طلبت منها ألا تخبر زوجها كي لا تزعجه ، لكنها جعلتها تكتشف نوعية الحياة المترفة المليئة بالسلع التي تعيشها كل السيدات الغنيات ، وجعلتها أكثر فأكثر ترغب في أن تعيش مثل هذه الحياة..

وكانت زوجة نوح هي المدخل الذي دخلت منه حيزبونة لابن السيد نوح.. مرة بدموع الأم ، مرة ببريق النجومية ، مرة بالسلع ، مرة بكل ذلك ممزوجاً..

وتدفق كل ذلك ، ليحاصر ابن نوح..

كان واضحاً تماماً من وقفته على المسرح أنه لم يكن سعيداً بكل ذلك..

صباح اليوم التالي ، ظهر السيد نوح ، بعد أصعب ليلة مرت عليه في حياته ، وهو يبدو أكثر قوة من قبل .. قلت لذي الرجولة المبكرة : إني سمعت أنه بكى وصرخ ، والآن أراه متماسكاً قوياً كما لو أن شيئاً لم يكن..

هز رأسه وقال : هذا صحيح ، ما لا يقتلك يزيدك قوة ، وما حدث من ابن نوح كان مؤذياً جداً ، مؤلماً جداً ، لكنه لم يقتله ولهذا زاده قوة.. منحه المناعة.. إنه الآن أقوى من قبل ، على كل الألم الذي مرّ به..

خلال أيام فهمنا جميعاً ، نحن المؤمنين بالسيد نوح ، أنه يطلب منا أن نجمع كل ما يمكن جمعه من ألواح الكتابة ، وألواح من أي حجم وأي نوع ، المهم تكون ألواح كتابة قد استعملت في تعليم الأطفال ، تعلمهم كيف يؤمنون بالإله الحق الواحد ، تعليمهم الإيمان الذي يجعلهم يؤمنون بأنفسهم ، بأنهم قادرون على أن يصنعوا عالماً أفضل..

الألواح الفارغة مرفوضة ، الألواح التي كتب عليها كلام فارغ أيضاً مرفوضة.. أخذت أجمع الألواح.. لوح بعد لوح بعد لوح.. وبعدها كان يذهب إلى نوح..

قال هو ، أخيراً ، وباقتضاب ، إنه آن له أن يبني مشروعه الجديد ، وأن هذه الألواح هي ذلك المشروع..

لوح بعد آخر ، كان يصفها معاً ، في إحدى ساحات المدينة ، لم نكن نعرف ما الذي ينوي فعله.. لكننا كنا نؤمن أنه يريد صنع عالم آخر.. من الخشب المثمر.

..ثم إنه قال لنا أن نصنع مساميرَ من أجل ربط الألواح.. قال إننا يجب أن نصنعها..

قلنا : لم لا نجمع مالاً من الجميع ونشتريها جاهزة ؟..

قال لنا : لا ، لن ينفع الأمر ، لن ينفع لأن تكون جاهزة ، علينا أن نتعلم نحن صنعها..

وبدأنا نحاول صنع المسامير ، تطلب ذلك الكثير، أن نأخذ المعدن الخام ، نبحث عنه ، نستخرجه ، نصهره ، نصبه.. لم يكن ذلك سهلاً أبداً ، وكنا نتذمر من طول الوقت في البداية.. لكن عندما اكتشفنا كيف نصنعه ، صار وسيلة للحفر في العالم..

قال لنا نوح أن نصنعه ، بمختلف الأشكال ، بمختلف الأنواع.. وأنه لا مانع من أن نطلع على ما يفعله الآخرون عندما يصنعون مساميرهم.. بل إننا يجب أن نطلع على ذلك ، لكنا يجب أن نصنع مساميرنا نحن ، بأنفسنا.. وإننا يجب أن نفعل ذلك ، حتى إن صنعنا مسامير من خشب..

مسمار بعد آخر ، اصطفت إلى جانب لوح بعد آخر ، ولم أعد أدري بالضبط إن كنا نحن – الذين ساهمنا في جمع الألواح – قد تغيرنا.. أم أن العالم هو الذي تغير !..

وقال لنا نوح إن هذه المسامير لم تعد مسامير، بل صارت (دُسُراً) .

وسألنا عن الفرق ، فقال إن المسامير هي مجرد مسامير ، قد نشتريها من الدكان ، أو من المول أو من أي مكان للعدد اليدوية.. لا جهد في صنعها.. لا جهد في التنقيب عنها ، أو في صبها..

أما الدسر ، فهي تلك المسامير التي نبذل الجهد في صنعها ، التي تحمل معها عصارة جهدنا ، جهد أفكار بعضنا ، جهد عضلات البعض الآخر.. المهم أن تحمل جهدنا مركزاً ، فيما يبدو أنه مجرد مسمار..

وقال لنا إن الألواح والدسر هي التي ستنقلنا إلى عالم آخر، عالم أفضل ، الشمس فيه أجمل ، والهواء فيه أكثر إنعاشاً ، والعالم أكثر عدالة ولا ظلم فيه .

قلنا له : "الألواح والدسر" ستفعل ذلك ؟..

قال : نعم..

سألنا : كيف ؟.. متى ؟.. أين ؟

قال : عندما تجعلون الألواح تلتحم بالدسر..

بعد بضعة أيام ، قال لنا السيد نوح ، إن وقت العمل الحقيقي قد حان.. كل هذا كان مجرد تمهيد للعمل الحقيقي..

أما العمل الحقيقي فسيبدأ الآن..!

وقال أيضاً : إننا سنبني السفينة.. وإننا لن نصل إلى أي مكان بالألواح وحدها.. ولن نصل إلى أي مكان بالدسر وحدها.. إنما هي الألواح والدسر، لا يمكن الوصول إلا بها معاً.. لا يمكن الذهاب إلى ذلك العالم الأفضل إلا بها معاً..

ألواح ودسر..

" سفينة ؟! ، سفينة في العراء ؟! على بعد عشرات الأميال من النهر ، والنهر بلا ميناء ، ولم تسر فيه سفينة من قبل ؟ ".. هذه كانت ردود الأفعال الأولى ، من قبل معظم الناس في المدينة.

قالت السيدة نميمة : " إنها سمعت أن السيدة زوجة السيد نوح قد تركته نهائياً ، وإنها تقول إن السيد نوح يجمع الحيوانات ليضعها في السفينة "

قالت غلاظة : " معه حق ! الحيوانات أفضل بكثير من زوجته.. ".. أيدتها أمي بحرارة .

في الأيام التالية ، بدأ الماء ينبع فجأة في أماكن متفرقة من المدينة ، كان ذلك حدثاً نادراً ، بل إنه لم يكن قد حدث من قبل.. بدأ في البداية في الأطراف ، حيث مساكن الأراذل ، لكن أحداً لم يهتم لهم ، بل إن الأراذل فرحوا لأنه صار بالإمكان استعمال المياه بشكل مباشر في المنازل ، بعدما كانوا يضطرون للذهاب إلى مكان بعيد لملء الأواني بالماء..

لكن ينابيع الماء اقتربت أكثر فأكثر من المدينة ومن أحيائها الراقية ، ولم يهتم مجلس المدينة فعلياً بالأمر إلا عندما ظهر ينبوع ماء فجأة في صالة استقبال السيدة تفاهة وأفسد لها سجادة ثمينة ، وكاد أن يغرق كلبها (الحقد الطبقي)..

طالبت السيدة تفاهة بعقد اجتماع عاجل للوزراء لخطورة الأمر .. وفي الاجتماع قال الكاهن عصفور : " كم واحد من أعضاء وعضوات مجلس إدارة المدينة يعرف السباحة ؟.. "

سكت الجميع.. قالت غلاظة : " علينا أن نفكر.. إن الأمر لابد أن يكون له أسبابه.. الأرض تخسف والماء ينبع فجأة.. لابد أن نفكر في أن ذلك قد يحدث في بيت أي منا.."

قال السيد إمعة : " صحيح.. "

قالت تفاهة : " بالمناسبة.. هل سمعتم ما يقوله السيد نوح ؟ "

قالت نميمة : " يقول إن هذا الخسف والماء الذي ينبع حدث بسبب المعاهدة التي وقعناها مع السيد أبرهة "..

ضج الجميع بالضحك " هل يقول هذا حقاً ؟.. ما علاقة هذا بذاك ؟ "

" لا أدري.. هذا ما يقوله.. وقول أيضاً إننا لن نتمكن من إيقاف الأمر لأننا بعنا أرواحنا وانتهى الأمر "..

" هذا الفاشل.. ليس هناك أكثر من ثرثرة منه.. وهكذا هم الفاشلون دوماً.. كلام فقط " .

هونت السيدة حيزبونة من الأمر كله عندما فاتحتها السيدة تفاهة بالأمر.. قالت السيدة حيزبونة : " سكان المدينة يجب أن يفرحوا بالأمر بدلاً من التشكي طوال الوقت ، فبعض المدن تعاني من التصحر ومن الجفاف.. وأنتم يطلع عندكم الماء فجأة وفي بيوتكم ومع ذلك الأمر لا يروق لكم ؟! ".. ثم طلبت من السيدة تفاهة أن تخبر السيدة نميمة أن تركز على الجانب الإيجابي للأمر..

لم تلبث السيدة حيزبونة حين خرجت السيدة تفاهة ، فاتصلت بجهاز التحاكي عن بعد . قالت فوراً وتقريباً دون أن تلقي السلام : " أين وصلتم ؟.. لا يهمني إن كان الحفر قريباً من السد أو من غيره.. لقد أنفقنا الكثير من أجل الوصول إلى سائل الطاقة.. ويجب أن نعثر عليه.. كل مصانعنا وكل مصالحنا في مدينة الرجل الأبيض تعتمد على هذا . ولن يهمني هذا السد الغبي الذي يحمي هؤلاء الأغبياء.. إن أمكنك أن تتفاداه فافعل.. إن لم يمكن فليذهبوا وليذهب إلى الجحيم.. أسمعت ؟.. الجحيم !.."

مع الأيام ، تصاعدت وتيرة شيئين : وتيرة بناء السفينة ، والتحام الألواح بالدسر ، ووتيرة هدم الأرض وخسفها وتفجر الماء منها.. وكان الناس قد اقتنعوا بواسطة جهاز المشهاد ، أن الأمر يمكن أن يكون خيراً كثيراً..

كانت السيدة حيزبونة تعرف أن السيد أبرهة يحب جمع الملفات الضخمة ، لكن ليس لقراءتها ، لذا ملأت الملف بكل ما تعرف جيداً أنه لن يراجعه ، وقالت : " لقد فعلتها مجدداً يا سيدي . كل توقعاتك كانت صائبة.. المدينة الغبية نائمة فعلاً على كنز.. هناك بحيرة عملاقة أو ربما حتى محيط من سائل الطاقة الذي نحتاجه.. والذي يكاد ينفذ في العالم كله إلا في هذه البقعة الغبية.. وحسب المعاهدة التي وقعها مجلس إدارة المدينة ، نيابة عن سكانها ، فنحن نمتلكهم حرفياً ، وطبعاً نمتلك البحيرة الهائلة التي ينامون عليها دون أن يعرفوا قيمتها.."

" لكن يا سيدي ثمة شيء واحد صغير جداً ، يتعلق بموت بعض الحيوانات في المدينة من جراء تدفق السائل في الماء.. لكن لا تشغل بالك بهذا ، فما أهمية هذه المدينة وسكانها كلهم بكل الأحوال..؟ "

قال النورس : لم يحدث هذا هنا ، أليس كذلك ؟..

قال الأفق : لا.. ليس هنا ، لكنه حدث طبعاً في وقت آخر..

قال النورس : نعم.. تم تصحيح الخطأ.. أذكر ذلك طبعاً.. لكن ما الذي جاء بهذا هنا.. ؟

قال الأفق : ليس على النائم حرج كما تعلم..

قال النورس : نعم.. وربما نوم كهذا أكثر وعياً من "يقظة الغافلين"

قال الأفق : أحسنت!.. أشعر أن يقظة الغافلين هي التي عليها حرج !

بدا شكل (السفينة) غريباً ، كلما اتضح أكثر فأكثر.. لم تكن تشبه السفن التي اعتاد عليها الناس والتي رآوها سواء في الحقيقة أم على المشهاد . كان شكلها غريباً ، وبسيطاً في آن.. لكنها لم تكن تشبه أي سفينة أخرى..

وبدأت ظاهرة موت الحيوانات في المدينة تزيد أكثر فأكثر.. كما أن هناك حالات وفاة أخرى لبشر من الأراذل..

أما السيد نوح فقد قال لنا إن علينا أن ننقذ الحيوانات التي لا دخل لها في ذلك كله ، ننقذها بأن نضعها في السفينة ، زوجان اثنان ، ذكر وأنثى ، لكي نضمن وجود نوعها في ذلك العالم الجديد الذي سنذهب إليه أو سنبنيه.. وإن علينا أن نحافظ على فكرة الحياة نفسها ، أن نحملها معنا أينما ذهبنا ، وأن نشعر بأننا مسؤولون عن كل كائنات الأرض ، كل مخلوقات الله ، بما أننا خلفاؤه على الأرض..

قال النورس : هل كان نوح من أنصار الحفاظ على البيئة إذن ؟..

قال الأفق : نعم ، لكن ليس بطريقة التكفير عن الذنب السائدة ، حينما يعترض البعض من هؤلاء على قتل طيور أو تلوث بيئة ، ولا يعترضون ولو قليلاً على قتل البشر ، لمجرد أنهم من لون آخر ، أو من عرق آخر ، أو من مستوى مادي أقل..

قال النورس : بأي طريقة إذن ؟..

قال الأفق : بطريقة يتكامل فيها معنى الحياة ، ويظل للإنسان فيها مكانة السيادة والهيمنة.. والخلافة..

@rawafed_k @rawafed_k @rawafed-k

الفصل الحادي عشر

اهتزت الأرض بشدة ، لأول مرة ، ذات مساء ، عندما كنا قد انتهينا من وضع آخر لوح ، مع آخر دسر..

لم تعرف مدينتنا الزلزال من قبل . كانت هذه تجربتها الأولى . هزة متكررة وطويلة استمرت نحو دقيقتين ، وخرج الناس إلى الشوارع مرعوبين وهم لا يعرفون ما يفعلون.. وزاد الخسف وتفجر المياه من باطن الأرض ، وتحطمت أنابيب المياه وبعض اللوحات الزجاجية ، ولم تحدث خسائر بشرية في المدينة ، لكن بيوت الأراذل لم تصمد أمام الهزة ، فسقط كثير منها فوق أصحابها ، وشبت حرائق غامضة انطلقت من مواقع الخسف التي ينطلق منها الماء عادة..

قال المشهاد إن الوضع تحت السيطرة ، وإن كل شيء آمن ، وإن هذه الأمور عادية تماماً ، وإنها تحدث في كل مكان في العالم ، بالذات في المدن المتقدمة ، " ولعل هذا دليل على خطوات التقدم التي قامت بها المدينة " .

تكررت الاهتزازات بعد ذلك . واشتدت . واستدعى الأمر اجتماعاً لمجلس إدارة المدينة لمعالجة الأمر.. ونتج من الاجتماع توصيات للناس بأن يخرجوا من بيوتهم عندما يحدث الزلزال..

أما السيد نوح قال إن الإنسان عندما يتجاوز قوانين الإله الحق الواحد ، فإن هذه القوانين ستتجاوزه حتماً وستتمرد على تمرده عليها..

بعد بضعة أيام ، هز المدينة انفجار هائل ، عقبه تدفق نافورة عملاقة من سائل أسود اللون عند المخيم قرب السد ، تداور الناس همساً أن أنبوباً عملاقاً قد انفجر ، وأن "النافورة" كانت ناتجة عن ذلك..

لم يهدأ تدفق السائل الأسود ، كما توقع البعض ، وسرعان ما تكونت غيمة سوداء عملاقة غطت المدينة بأسرها..

وسرعان ما بدأ المطر..

مطر أسود ، قطراته لزجة عملاقة..

زاد المطر..

سكن الناس في بيوتهم مرعوبين ، لم يعرفوا ماذا يفعلون ، زادت الاهتزازات ، زاد الخسف ، زاد تدفق الماء من الخسف ، واستمر المطر الأسود ، وغمر شوارع المدينة.. يغرقها بالتدريج.. بالتدريج..

قال لنا نوح إنا موعدنا عند السفينة..

وقال لنا إن كل من قال لا إله إلا الله ، يجب أن يصعد إلى السفينة.. وانطلقنا ننقل الخبر بين الناس..

ذهبت لأمي . كانت تروح وتجيء مسرعة بين أنحاء البيت وهي تجمع الأغراض وتضعها في حقيبة كبيرة ، قالت لي دون أن تنظر :" اذهب واجمع أغراضك ، قالت السيدة حيزبونة إنهم سيرسلون لنا طائرة لتنقذنا ".

" لنا ؟ من المقصود بـ " لنا ؟ "

" نحن ، عائلتنا ، هل نسيت أن السيد إمعة رئيس مجلس إدارة المدينة هو زوج عمتك ، كل أعضاء المجلس وأقاربهم والأشخاص الأثرياء المهمون في المدينة سيتم نقلهم خارجها . قالت السيدة حيزبونة إن الطائرة ستنتظرنا صباح الغد عند قمة الجبل ، وعلينا أن نكون هناك قبل الفجر.. "

" أماه ، لقد جئت لأقول لك أن تأتي إلى السفينة.. "

" أي سفينة ؟.."

" سفينة نوح.. قال لنا السيد نوح إن كل من آمن بـ (لا إله إلا الله) يمكنه أن يركب السفينة التي ستنجينا من كل هذا "

قالت : " سفينة نوح ؟ "

" نعم ، سفينة نوح ، هل ستفضلين طائرة حيزبونة عليها ؟.. "

قالت : " كل من آمن بـ (لا إله إلا الله) ؟.."

" نعم.. كل من آمن بـ (لا إله إلا الله).."

قالت بعد صمت : " كان ذلك من وقت طويل "

قلت لها : " لكنها لا تزال هناك.."

ردت : " الطائرة تنتظر يا نور ، عند قمة الجبل.."

كررت : " أيهما تختارين ، سفينة نوح ، أم طائرة حيزبونة ؟.."

كانت ليلة هادئة نوعاً ما..

خفَّ المطر الأسود ، وتفاءل البعض بأنه سيتوقف ، وأن كل شيء سيعود كما كان.. فهدوء المطر ترك فرصة لكل من يريد أن يركب السفينة أن يذهب إليها..

كان هناك فقراء من الأراذل ، وأغنياء من جيراننا ، وآخرون بين هؤلاء وهؤلاء.. كلهم تجمعوا في السفينة ، بلا فوارق..، من أجل عالم آخر ، أكثر عدالة..

قبيل الفجر ، وبعد ليلة شبه هادئة ، حدث صوت هائل.. هائل جداً ، لم نسمع مثله من قبل ، كان مثل انفجار عظيم واحد ، حبسنا له أنفاسنا جميعاً..

ثم تلت ذلك اهتزازات عنيفة.. واحدة تلو الأخرى.. اهتزت لها المدينة بشدة . كان ذلك هو السد ، السد الذي يحمي المدينة ، السد الذي بنيت المدينة عليه ، انهار فجأة ومرة واحدة..

وبانهياره تدفق الماء الذي كان السد يحتجزه ، تدفق نحو المدينة بسرعة ، ومرة أخرى انفجرت أنابيب ذلك السائل اللزج ، وتكونت الغيوم السوداء مجدداً.. وتدفق المطر الأسود من جديد.. وزاد الخسف بعد الاهتزازات ، وزاد تدفق الماء من باطن الأرض.. والتقت هذه المياه كلها ، السد والمطر ومياه باطن الأرض ، كما لو أن لديها موعداً..

صار واضحاً الآن أن المدينة كلها تغرق..

كان البعض قد جاء إلى السفينة بواسطة قوارب إنقاذ صغيرة ، أخذت واحداً وجذفت باتجاه الجبل.. كانت أمي قد وصلت للتو ، سبقها أبي وبقية إخوتي ، ناديتها بأعلى صوتي.. وقلت لها : " أمي ، تعالي ، لا عاصم اليوم من أمر الله.. لا فائدة من الجبل.. "

قالت : " اذهب يا نور لا فائدة أيضاً من أن أخدع نفسي.. لقد تركت الإيمان ، وارتددت عنه ، ولم يعد يمكنني أن أعود ، الإنسان يجب أن يتحمل نتائج قراراته.. ولذلك.."

قاطعتها بصوت عال : " كفى! لا وقت لدينا لهذه الفلسفة الآن.."

لدهشتها، سحبتها بقوة إلى القارب وأجلستها فيه..

قلت لها : " عذراً ، ولكن ولا كلمة..!!

قال النورس : الحمد لله أنه فعل ذلك ، كنت سأنزعج جداً لو أنه تركها تذهب لتغرق فقط من أجل "حريتها الشخصية"..

قال الأفق : يحبون فعل ذلك في (الدراما).. فقط من أجل تأزيم الأمور والظهور بمظهر فني.. كم أكره ذلك..

قال النورس : نعم ، لكن ألم يذكرك ذلك بابن نوح ؟.. ألم يكن هنا أيضاً ؟.. ألم يحاول معه والده ؟.. ورفض هو ومضى إلى قمة الجبل ، وقال له لا عاصم اليوم من أمر الله..

قال الأفق : نعم ، كان ذلك غرقاً مع سبق الإصرار والترصد ، ربما لنفهم أن لا واسطة هناك ، لن يتم سحبه إلى السفينة من دون استحقاق لمجرد أنه (ابن) نوح..

بدأت السفينة تعلو بينما كانت السفينة تغرق ، وكانت هي الشيء الوحيد الذي يرتفع ، بينما المدينة كلها تهبط.. من بعيد كان هناك قارب صغير ، جاء إلى السفينة ، وكان يقول (لا إله إلا الله) ، فتوقفنا وساعدنا الشخص على الركوب.. وإذا هي كانت السيدة غلاظة..

بالتدريج اختفت معالم المدينة . كل المباني المرتفعة ، حتى الهيكل الكبير ، حتى الأوثان العملاقة ، حتى قليس السيد أبرهة" الكبير ، حتى التمثال العملاق للكولا لولا.. كل شيء غطاه الماء.. وبعد قليل مرت السفينة من أمام الجبل.. لم نجد له أثراً.. كان لابد أنه غرق أيضاً..

وغرق الجبل بمن فيه ، قيل إن حيزبونة لم تكن جادة أصلاً في أمر الإنقاذ ، وإنها قالت ذلك فقط لكي تلهي الناس وتتخلص منهم . قيل أيضاً إن الطائرة كانت على وشك الهبوط عندما ضربتها موجهة هائلة أسقطتها في الماء ، وغرقت بمن فيها.. وقيل إن طائرة السيدة حيزبونة قد غرقت أصلاً قبل أن تقلع.. كما قيل إن حيزبونة ربما نجت ولم تلتفت حتى إلى من تركتهم ينتظرونها عند قمة الجبل .

قال لنا السيد نوح ونحن ننظر إلى المدينة الغارقة ، التي لم يعد لها وجود " لا مفر من أن نتألم.. إن الألم لابد منه ، لكن علينا أن نغير من أحرفه قليلاً بعد ذلك ، لكي يصير: (أمل).."

وقال السيد نوح ، عندما أنزل الأشرعة ، وقبل أن تبحر السفينة : " بسم الله مجريها ومرسيها".. شعرت أن تلك الكلمة كانت بمثابة (المحرك) للسفينة ، بمثابة الشراع الحقيقي للسفينة..

قال لنا ذو الرجولة المبكرة ، إن السفينة ستجري باسم الله ، الله الحق الواحد الذي وضع السنن والقوانين التي جعلت السفينة "تعلو" و "تطفو".. وتجري.. وأنها سترسو كذلك على قوانينه.. سيكون المرفأ الأخير مبنياً على قوانينه أيضاً..

يوم ويومان وثلاثة ، هدأت السماء.. وصفا الجو، وسطعت الشمس من جديد ، وعادت الغيوم بيضاء ، كما لو أنها تحمل بشارة رسالة مفعمة بالأمل.. ظلت السفينة تبحر ، كان نوح يعرف اتجاهه جيداً ، كان قد حدد هدفه ، وكانت بوصلته واضحة.. وكانت دفة السفينة وأشرعتها ، ترتبط بتلك البوصلة بلا أي تناقض ، أو افتراق..

الخاتمة

.. من بعيد جاء نورس أبيض..

رفرف طويلاً حول السفينة.. حطَّ على سارية السفينة.. هللنا جميعاً عندما فعل ذلك.. كان وجود النورس يعني أن البر ، بر الأمان ، المرفأ الذي نتجه إليه ، قد اقترب.. اقترب العالم الآخر ، العالم الجديد.. نظرنا جميعاً إلى الأفق البعيد.. ورأيناه يتلألأ كما لو كان يومئ لنا ، أن اقتربوا..

قال النورس للأفق : هل رأيتني ؟

قال الأفق : هل كان ذلك أنت ؟

قال النورس : نعم ، لقد كنت طوال الوقت أنتظر أن يأتي دوري.. كي أحمل بشارة الوصول إلى ذلك العالم الجديد..

قال الأفق : أنا أيضاً كنت موجوداً هناك.. ألم ترني ؟

قال النورس : كان ذلك أنت إذن ؟..

قال الأفق : نعم ، كنت أحمل بشارة العالم الذي سيكف عن أن يكون حلماً ، بل يصير واقعاً..

قال النورس : تنتهي الحكاية هنا ؟..

قال الأفق : تقريباً.. تنتهي حكاية ، وتبدأ أخرى.. دوماً هناك مدينة تخرق القوانين ، وتغرق ، ودوماً هناك سفينة يمكن أن تنقذها..

قال النورس : نعم ، ودوماً أنتظر دوري.. الآن علي أن أذهب لأبحث عن السفينة الكامنة الأخرى..

قال الأفق : نعم ، وأنا أيضاً.. كانت حكاية جميلة ، حتى إن كنت قد شاهدتها كلها من قبل.. صحيح ، لكني لم أتعرف عليك بعدُ ، قل لي : ما اسمك ؟..

قال النورس : اسمي "ألواح".. وأنت ؟..

قال الأفق : اسمي "دُسر".. سأراك في الحكاية مجدداً ، صحيح ؟..

قال النورس : إن شاء الله.. ما دامت قوانينه وسننه عز وجل مستمرة ، فسيكون لنا دوماً دور في الحكاية..

وطار النورس " ألواح" ، حلق عالياً.. وغاب في الأفق.. الأفق "دُسر"..

أَلواحٌ وَدسُر

رواية من عالم استثنائي ومختلف.
قد يكون ذلك العالم عالمنا الحقيقي بعد أن نزيل عنه أقنعته ونزيح عنه أصباغه ، فتسقط فيه الجدران الوهمية بين الزمان والمكان،
فإذا بالماضي يصير بصيغة الحاضر، والحاضر يتلبّس صيغة المستقبل .
للوهلة الأولى ، ستكون الرواية عن سيدنا نوح -عليه السلام-، وسفينته التي أنقذت الإنسانية من الطوفان،
وكلنا نعرف هذه القصة، لكننا سنجد أنفسنا فجأة جزءًا منها،
بل إننا سنجد أن واقعنا المعاصر كله هو استمرارٌ لتلك القصة؛
كما لو أنها لم تنتهِ قَط، كما لو أنها تتجدد دومًا، وإن تبدّلَت أشكال الطوفان، وتبدّل معها شكل السفينة...
القصة تروَى من وجهة نظر طفل صغير عاصَرَ الأحداث وقتها،
لكن سرعان ما نكتشف أن هذا الطفل يسكن جزءًا من أعماقنا، وأن في كلٍّ منا بقايا شيء منه...
في هذه الرواية، سنجد أنفسَنا أمام خيارين لا ثالث لهما:
إما أن نستسلم للطوفان ونقبل الغرق، أو أن ننضم إلى السفينة وركابها...
إما أن نمر بها وبمَن يبنيها ضاحكين مستهزئين، أو أن نمد أيدينا، إلى الألواحِ والدُّسُر...

ـــــ الكاتب

@rawafed_k @rawafed-k

www.rawafedknowledge.org
rawafed.communicate@gmail.com